20 me. année No 990

Le Caire 23 - 6 - 1952

بدل الاشتراك عن سنة
ــــصــــ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩٩٠ «القاهرة فى يوم الاثنين أول شوال سنة ١٣٧١ — ٢٣ يونية سنة ١٩٥٢» — السنة العشرون

البعث الدينى فى الغرب

للدكتور عمر حليق

يتساءل الدكتور « راينهولد نايبور » ، أحد أقطاب اللاهوت البروتستنتى فى أمريكا ، عما إذا كان المجتمع الغربى يمر الآن فى بعث دينى كفيل بأن يتسرب إلى صميم السلوك السياسى والاقتصادى للشعوب المسيحية فى الغرب ، فيضع حدا لهذه الأخطاء الشنيعة التى تشوب سلوك الإنسانية ، وتدون صحف التاريخ بأحرف النار والدمار

وجواب هذا القطب البروتستنتى عن القسم الأول من هذا التساؤل ، أن هناك اتجاهات واضحة فى الانتاج الفكرى ، وفى السلوك اليومى للشعوب الغربية ، تدل بوضوح على أن هناك بعثا دينيا تزداد مظاهره جلاء يوما بعد يوم . ولكن صاحبنا يعترف بأن من الصعب عليه — وعلى أى كان من المراقبين المعاصرين لحاضر السلوك الدينى فى أمريكا وأوربا الغربية — أن يقدم البراهين القاطعة على هـذا البعث الدينى ، براهين تستند إلى حركة جديدة ثابتة الأركان كتلك التى سجلها عن حركات البعث الدينى ، وحدد أزمانها ومعالمها وأقطابها وأهدافها ومبادئها . ويعترف هذا الزعيم البروتستانتى كذلك بأنه قد يكون مخطئا فى تفسيره لمظاهر هذا البعث الدينى الجديد . فقد تكون هذه المظاهر ليست إلا سحابة صيف عابرة ، لا تستطيع أن تحيي موات الأرض

وقد عالج الدكتور نايبور هـذه الناحية فى حاضر الثقافة المسيحية فى بحوث عديدة منها كتابه « الإيمان والتاريخ Faith and history » ودراسة حديثة للعنصر الدينى فى تاريخ أمريكا المعاصر the Irony of American history ، وفصول وكتب أخرى تدرس فى أكبر معاهد الديانة البروتستانتية فى أمريكا

ويستشهد هذا العالم البروتستانتى للدلالة على أن الغرب يمر فى فترة إحياء دينى بأمرين :

أولهما نجاح نفر من الوعاظ المسيحيين فى أمريكا وبريطانيا برد آلاف من الرعية إلى حظيرة الكنيسة ، كما تدل على ذلك إحصاءات الهيئات الكنسية

ثانيهما هذه الظاهرة القوية التى أخذت فى السنوات الأخيرة تتسرب إلى الانتاج الأدبى والفنى فى أوربا وأمريكا ، ظاهرة تجد الخلاص فى مشاكل النفس وأزمات الضمير فى الإيمان (١) والرجعة إلى الدين . ويشترك فى هذه الرجعة نفر من الكتاب

(١) يستعمل كاتب هذه السطور كلمة (الإيمان) بمعناها اللغوى

والشعراء في ثنايا المنظوم والمنثور من إنتاجهم الأدبي .

وبعض هؤلاء الأدباء والمفكرين يدعو إلى الرجعة إلى الإيمان بأوسع معانيه ، مسيحيا كان أم بوذيا أم كنفوشيا، وتتخذ هذه الرجعة إلى الدين لونا من التصوف العميق كما هو الحال عند الأديب البريطاني الشهير (آلدوس هكسلي) الذي نشأ في بيت خاصم العقيدة الدينية خصومة عنيفة ، واشترك جده الأكبر مع « داروين » في مناقشة التفسير الديني بطبيعة الأشياء ، وأصول النشوء والارتقاء . ولآلدوس هكسلي كتاب يعالج فلسفة التصوف في الشرق والغرب ، في تحبب وإعجاب ولون من الإيمان العميق بها

وجدير بالذكر أن الاتجاه نحو التوسع في نشر التعليم الديني قد عم معظم الأوساط الجامعية في أمريكا الشمالية ، كما أشار إلى مؤتمر رؤساء الجامعات الأمريكية ، وهيئات الخريجين الذي انعقد مؤخرا في شيكاغو

فإلى ما قبل سنوات قليلة كان التعليم الديني مقصورا على موضوع أو موضوعين ، يعالجان التوراة والإنجيل (العهد القديم والعهد الجديد) من ناحية أدبية بحتة ، تتعمد تربية الذوق الأدبي والثروة اللغوية أكثر مما تهدف إلى شرح التعاليم الدينية ودقائقها

والشعب في أمريكا يتحدث الآن عن ذيول القرار الخطير الذي أصدرته منذ بضعة أسابيع فقط محكمة العدل العليا بواشنطون ، وهي أهم مرجع قضائي في الولايات المتحدة الأمريكية، وأقرت به الحق لطلبة المدارس الحكومية ، الابتدائية والثانوية ، في أن يختاروا حصة معينة من جدول الدراسة الأسبوعي ، يتلقون خلالها دروسا دينية ، كل حسب المذهب الذي ينتمي إليه ويختاره له أبواه أو أولياء أمره . وجدير بالذكر أن التعليم الديني في المدارس الحكومية في أمريكا ، لا وجود له مطلقا . وإذا علمنا أن حوالي ٩٠ ٪ من الطلبة الأمريكان يتلقون علومهم الابتدائية والثانوية في مدارس الدولة أدركنا خطورة هذا الوضع على الحياة الروحية بين الأحداث الأمريكان ، والفضل في الإبقاء على الحياة الدينية يرجع إلى نظام (مدارس الأحد) التي أنشأتها الكنائس البروتستانتية ، واقتبسه منها الكاثوليك واليهود ، ليتلقى الحدث فيها أمور دينه مرة كل أسبوع على يد القساوسة والحافظين للتعاليم الدينية من رواد الكنيسة وأتباعها

وهذه القسوة في إبعاد التعليم الديني عن برامج المدارس الحكومية في أوربا الغربية وأمريكا الشمالية ، يعود إلى السياسة التي تعمدت فصل الدين عن الدولة ، وهي سياسة اتبعتها بعض الدول المسيحية لتتفادى الصراع الطائفي بين مواطنيها ، فالبروتستانت والكاثوليك ، يمشون جنبا إلى جنب في الدول المسيحية ، والصراع المذهبي بين الكاثوليكية والبروتستانتية كان ولا يزال على حدته المعهودة . فالبروتستانت تتهم الكاثوليك بالولاء لمركزية الفاتيكان وسلطة البابوية ، وهي سلطة يعتقد البروتستانت بأنها تتعارض في بعض الحالات مع المبادئ الديمقراطية وحق الجماعات الدينية ، بأن تواجه مشاكلها الروحية المختلفة على ضوء الأوضاع والظروف الخاصة التي تتميز بها الجماعات ، ولا موجب لأن يتقيد الناس بمركزية الفاتيكان وهي مركزية يعتقد البروتستانت بأنها صارمة

وقد كان للنفوذ اليهودي القوي في دخيلة الولايات المتحدة أثر في تقرير الاتجاه بفصل الدين عن الدولة . فالتعاليم المسيحية بروتستانتية كانت أم كاثوليكية ، تدين اليهود بصلب المسيح ، وألوان الشادة والتعذيب والتآمر والتنكيل التي صاحبت نشوء المسيحية بين العبرانيين . وإذا جردت برامج التعليم في المدارس الحكومية من نشر هذه التعاليم المسيحية ، أزيلت تدريجيا من أذهان الناشئة حقائق الصراع المذهبي بين المسيحية واليهودية من جهة ، وبين الكاثوليك والبروتستانت من جهة أخرى . وقد نجح اليهود في توحيد جهودهم مع البروتستانت في أمريكا وجعلها جهدا مشتركا للوقوف في وجه الفاتيكان . فتم فصل الدين عن الدولة في مظاهر رسمية على الأقل ، ومنها التعليم الحكومي . والواقع أن البروتستانت أكثر ميلا إلى تسامح

مع اليهود منهم إلى مصافاة الكاثوليك . فالفاتيكان يدرك إدراكا تاما خفايا اليهودية العالمية ومطامعها وأهدافها ، ولذلك فهناك صداقة مفقودة بين الفاتيكان وحكماء صهيون

قلنا إن قرار محكمة العدل العليا الأمريكية الأخير ، قد تغلب على مشكلة التعليم الديني في مدارس الدولة ، وذلك تلبية لحملة عنيفة شنها أولياء أمور الطلبة ، وأشاروا فيها إلى أن خلو برامج التعليم من الدروس الدينية قد خلف أزمات روحية وأخلاقية لم تعد تقوى أساليب التعليم الحديث على معالجتها دون معونة الدين ، وهذه الحملة من الأدلة التي يستشهد بها بعض زعماء الدين المسيحيين في معرض إشارتهم إلى البعث الديني الذي يعتقدون أنه أخذ ينمو في حاضر الغرب

ومما لا ريب فيه أن الثقافة الدينية تجد في أوربا — باستثناء منطقة النفوذ الشيوعي — مرتعا أكثر خصوبة ، منه في العالم الجديد

فللكاثوليك جذوع راسخة في ألمانيا وفرنسا ، فمدارس الفكر المتعددة التي تمثلها : مجلة فرانكفورتر هافتي في ألمانيا ، ويتزعمها في فرنسا جيلون وماريتان ، هي من دعائم الفكر الكاثوليكي في حاضر الثقافة الفرنسية خاصة ، والأوربية على وجه العموم

ويراقب الفاتيكان هذا النشاط الثقافي في إطار العقيدة الكاثوليكية مراقبة دقيقة ، فبين رجال الكهنوت في الكنيسة الكاثوليكية — وعلى الأخص في فرقتها المثقفة كجماعة اليسوعيين والبندكتيين — جماعة تفرغوا لحاضر الأدب والفن والفلسفة ، وساهموا في دراستها والتعقيب عليها ، ووفروا لأنفسهم نفوذا بالغا ، ساعدهم على تحقيق ما للفاتيكان من قوة في المواصلات الفكرية الحديثة ، في دور النشر والصحف ، وهيئات الإذاعة . وحين يلمس الفاتيكان شعوبية في التفكير بين المثقفين الكاثوليك من غير رجال الكهنوت ، يلجأ البابا إلى هذه المنشورات البابوية المعروفة بـ Encyclical التي تعبر في لغة دقيقة عميقة عن رأي الفاتيكان في شؤون الفكر والبحث العلمي . وقد أصدر البابا في ٢١ أغسطس عام ١٩٥٠ ، واحدا من هذه المنشورات العامة بعنوان « في الإنسانية » شرح فيه موقف العقيدة الكاثوليكية من البحث العلمي ، الذي يتعمد أن يبرز المكتشفات الحديثة في علوم الطبيعة والذرة والفلك والتعليلات الفلسفية ، على أساس المقارنة مع التراث الكاثوليكي في هذا النوع من النشاط العقلي . وقال البابا إن الكنيسة الكاثوليكية لا تقف موقفا معاديا للبحث العلمي ، فبعض ألوان هذا البحث قد يكون متمما للقيم الدينية والأخلاقية التي تستند إليها الديانة المسيحية . ولكن الذي يخشاه الفاتيكان هو أن يتطور هذا النشاط العقلي ، فيتحمس لتشريح العقيدة الدينية بمبضع البحث العلمي ، فيفسد على النفوس اطمئنانها . فالإيمان بالعقيدة أمر يكتسب بالفطرة، والتكوين الروحي العميق، وبعض حقائق هذا الإيمان لا يمكن أن تفسر تفسيرا علميا كما يفسر التفاعل الكيماوي والحركة الميكانيكية ، فإذا كان القصد من تسليط أضواء البحث العلمي على العقيدة الدينية لتزداد قبولها بين الناس ، فحري بالمتحمسين لهذا القصد أن يتريثوا قبل أن يشكل عليهم الأمر ، ويدفعوا إلى الشك والإلحاد . فكما أن لقدرة الإنسان حدودا وقيودا تجعله في بعض الحالات عاجزا عن تعليل الأسرار الملهمة وخفاياها ، فإن لقدرة الفكر على تحليل الإيمان بالعقيدة الدينية ، حدودا وقيودا كذلك . فالتطرف في كلتا الحالتين ، يفسد على المرء إيمانه بالعلم وإيمانه بعقيدته الدينية

هذه الإرشادات التي تصدر من الفاتيكان بين آونة وأخرى هي وليدة دراسة دقيقة للاتجاهات الفكرية في الجماعات التي تؤلف المجتمع الكاثوليكي بأوسع معانيه . وهذه الإرشادات هي بمثابة فتاوى يشترك في وضعها أهل الاختصاص من الكرادلة والمتبحرين في علوم الكنيسة ، والعلما كفون من كهنوتها على متابعة الأدب والفن والتيارات الثقافية المعاصرة

وليس للكنيسة البروتستانتية — بسبب تشعب فرقها — مركزية تشابه الفاتيكان . ولذلك فإن تسجيل الاتجاهات

الدينية بين البروتستانت يكون بنوع من الدراسات الإحصائية التي يغرم بها الأمريكان ، وهم اليوم عماد العالم البروتستانتي .

وعلى كل فإن كلتا الطائفتين — البروتستانتية والكاثوليكية — تمر الآن في نوع من البعث الديني ، سواء تعرف عليه البروتستانت بطرق الإحصاء ، أم سجله الكاثوليك في الفاتيكان بأساليبهم الخاصة

والمراقب للحياة الدينية في الغرب ، لا يصح أن يعتمد في تسجيله لظواهر هذا البعث الديني على أقوال رجال الدين أنفسهم ، فهم بحكم حماستهم وعلاقتهم المهنية بالدين ، أميل إلى تجسيم الظواهر ، منهم إلى معالجتها معالجة إيجابية

ففي الغرب أناس من غير رجال الدين ، يلمسون ظواهر هذا الإحياء الديني ، ولكنهم يفسرونها تفسيرا خاصا

فمنهم من يقول إن الرجعة إلى الكنيسة مبعثها « أزمة الأعصاب » التي تعترى الناس في أوربا وأمريكا ، بعد أن أنت الحرب الأخيرة ، والحرب الباردة الحالية على البقية الباقية من الاستقرار النفسي ، التي تركتها الحرب العالمية الأولى والأزمة الاقتصادية الخانقة التي حلت بالغرب في فترة ما بين الحربين

وبعضهم يدعى بأن المجتمعات أميل إلى التعلق بلون من الإيمان الديني الثابت حين تداهمها ظروف حادة من الهستيريا الشاملة التي تصاحب فترات القلق السياسي والاقتصادي ، كهذه الفترة التي تمر بها المجتمعات في أوربا وأمريكا اليوم .

فالرجعة إلى الكنيسة — في رأى هؤلاء البعض — مدفوعة بالرغبة في التخلص من المآزق النفسية والمادية التي هيمنت على ملايين الأنفس التي أخذت تكفر بالمبادئ الاقتصادية ، بعد أن بليت بشرورها في الحرب الأخيرة وحرب كوريا ، فرغبت في أن تتخذ لنفسها مخرجا في اختيار المبادئ الدينية

ومن الطريف أن طغيان العلم ، وما خلقه من آلات الدمار الذرى وقنابل الجراثيم ، قد وفر لرجال الدين في أوربا وأمريكا فرصة حسنة للدعوة وترويج المبادئ الدينية ، فالوعى الباطني للمجتمعات في أوربا وأمريكا يرتجف هلعا من القنابل الذرية ، والبحوث والإرشادات للوقاية من ويلات هذه القنابل وملحقاتها لم تبعث في هذه المجتمعات أملا في النجاة والوقاية التامة ، وإنما زادت خوفهم خوفا ، وحين يتطرق الواعظ الديني في كنيسته — على سبيل المثال — إلى موضوع القنبلة الذرية وأهوالها ، ويقول لسامعيه بأن ابن آدم يعبث بآلات علمية ، لا يدرى إلا الله مدى شرورها وأهوالها ، وأن المخترعات الحديثة هي وليدة الصدفة ، وليست وليدة العقل البشرى الجبار ، والدليل على ذلك عجز هذا العقل البشرى عن استنباط الوقاية من هذه الشرور المهلكة. حين يتحدث الواعظ بمثل هذا المنطق يجد لدى سامعيه آذانا صاغية ، وهذه الآذان لا يهمها في أكثر الحالات أن تدرك عظمة الألوهية بقدر ما ترغب في الخلاص من مخاوفها وقلقها .

فإذا عجز العلم عن إزالة هذه المخاوف وإبادة هذا القلق ، فلا مفر من أن يجد المرء السلوى في القضاء والقدر والعناية الإلهية

ومن هذه الظاهرة يلمس المراقب للحياة الدينية في الغرب الرغبة بين الأوساط الدينية البروتستانتية والكاثوليكية باقحام الدين في الحياة السياسية والنشاط الاقتصادي ، وهي محاولة لا تعلن صراحة عن رغبتها في إعادة وصل الدين بالدولة ، فالفكر الغربي قد وطد في أسسه الجوهرية مبدأ فصل الدين عن الدولة ، وإنما ترغب في أن يتسرب التفكير الديني إلى صميم السلوك السياسي والاقتصادي ، ليحاول صياغة سياسة الحرب والسلم بلون من الاشعاع الديني ، بعد أن سيطرت عليه القوة المادية ، قوة العلم وما خلقه من مداول للحرب والتوسع الاقتصادي

وبين البروتستانت والكاثوليك خلاف على أساليب الوصول إلى هذا الهدف ؛ فالفاتيكان ، وإن كان راغبا في توطيد السلم والاخاء ، والحد من استعمال آلات الدمار الجهنمية التي استنبطها العلم ؛ إلا أنه يفضل لو تم هذا السلام بعد القضاء على الشيوعية واقتلاع جذورها ، ولو كانت الوسيلة إلى ذلك حربا عالمية جديدة ، إلا أن البروتستانت — أو على الأقل طائفة من أبرز زعمائهم — يعتقدون بأن الحرب الطاحنة ، إذا حلت بهذا العالم فإنها لن تقضى على الشيوعية فقط ، بل إنها ستقضى على معالم الحضارة المسيحية الغربية كذلك ؛ ولذلك فبين أقطاب البروتستانت — كجماعة الكويكرز مثلا — من يعتقد بإمكانية العيش لجميع النظم السياسية والاقتصادية المعاصرة ، إذا صفت النية ، وساد جو العالم لون من الروحانية ، والسلوك الديني القويم

نيويورك

عمر حليق

شخصية الشافعى
على ضوء علم النفس الحديث

للأستاذ أنور الجندى

يتمثل لى الإمام « الشافعى[١] » حين أدرس سيرته ، عملاقا نحيلا ، ضامر الجسد ، مقبول الطلعة ، على الرغم مما قيل عن ملامحه.. فليست الملامح فى الحق هى كل شئ.. وقد تبدو غير متسقة ، ولكن يبرز من ورائها «روح» صاحبها غاية فى القبول والتقدير عند من يتصل به

وأرى فيه مظهر الرجل الذى يصفه علم النفس بالانطوائى..، وكل الرجال الذين احتضنوا الأفكار والدعوات والمذاهب ، كانوا من هذا الصنف

وقد عرف الشافعى بأنه يحب العزلة أحيانا ، ويلجأ إلى الصمت أحيانا ، وأنه يمكن لنفسه بذلك من التأمل والدرس والمراجعة وهى عدة الفقيه والداعية

وأتاح له هذا الجسد النحيل ، القدرة على السفر والرحلة واحتمال مشقة الانتقال بين العراق ومكة واليمن ومصر

ولد فى مكة ، ورحل إلى المدينة ، ثم سافر إلى اليمن ، ثم حل إلى بغداد ، ثم عاد إلى مكة ... وقصد إلى بغداد ثم إلى مصر ، حيث أقام فيها بقية حياته .. ، وقد أتاحت له هذه الرحلة ، وهذا التنقل المتصل ، خلال هذه المنطقة التى كانت تعد فى ذلك الوقت قلب العالم الإسلامى ، فرصة واسعة لدراسة طبائع الناس وأخلاقهم ومعرفة مصالحهم واتجاهاتهم ، وفهم الحياة ومشاكلها وقضاياها

وقد أنضجت الرحلة ذهن الشافعى وتفكيره ، وأمدته بقوة سيكولوجية رائعة ، وأتاح له ذكاؤه المتقد ، وقدرته العقلية الجبارة ، مرونة ولباقة جديرين بالتقدير . فهو قد غير مذهبه ، الذى وضع أصوله فى العراق ، حين استقر فى مصر ، ووضع بدلا منه مذهبه « الجديد » الذى ضمنه خلاصة تجاريبه وملاحظاته ودراساته خلال تلك الفترة الطويلة التى قضاها متنقلا فى الأقطار الإسلامية .. ، وكانت تجارب الأئمة والفقهاء الذين التقى بهم ، وقرأ لهم ، قد تبلورت فى نفسه ، واستقرت ، فاختار منها ما رآه صالحا مع البيئة الجديدة التى استقر فيها

وإذا كان يقال إن أبا حنيفة قد شرع بروح العراق ، وإن مالكا قد شرع بروح الحجاز ، فإن الشافعى قد شرع بروح مصر . ويكاد الشافعى إلى ذلك أن يكون رابطة العقد بين فقهاء عصره ، فلقد ولد فى العام الذى مات فيه أبو حنيفة ، وتلقى العلم على مالك فى المدينة ، فبهره بجودة حفظه وألمعية ذكائه ، . . ثم كان ابن حنبل من تلاميذه

وقد التقى حين قدم العراق بأبى يوسف ووكيع ، وبذلك يمكن القول أن الشافعى قد أحاط بالفقه الإسلامى فى عهده واستوعبه استيعابا كان كفيلا بأن يجعله عميد الفقهاء وإمامهم فى عصره ، فهو الإمام الذى وضع الموازين والمقاييس ، وضبط الفقه ، بعد أن جادل الفقهاء وقارعهم وانتصر عليهم

فإذا تركنا الحديث فى فقه الشافعى للفقهاء ، وذهبنا نتقصى « شخصيته » الإنسانية وجدناها غاية فى القوة والسمو والحيوية ، وتمدد الجوانب وسعة الأفق ، وذلك بالإضافة إلى ما أثر عنه من براعة وذكاء

يتحدث الذين عاصروه عنه ، أنه كان محببا إلى نفوس عارفيه ، وكان إشعاعه ولباقته وحسن حديثه يكسبه حب الناس وثقتهم .. مما كان يزيد عدد أتباعه ومريديه يوما بعد يوم

وأنه قد توافرت له صفات الداعية ، صاحب المذهب ، هذه الصفات التى تتمثل فيما أثر عنه من طول أناة وحلم ، وابتسام ثغر ، وإشراق وجه وبعد عن الغضب ، وتواضع وخفض جناح وسلامة صدر ، وصفح عمن يسئ إليه .. وبعد عن التعصب ، وإملاء الرأى . . فقد كان يعذر مخالفيه فى الرأى ويقبل منهم

ويرجع ذلك إلى تلك الأصالة النفسية التى كونت «طابعه» طابع الزعامة ، فقد كان « رياضيا » تعلم الرماية وأغرم بها وأجادها ، وكان يرمى عشرة فى عشرة وقال عن نفسه « كانت همتى فى الرمى والعلم »

وقد نقل أسلوب الرياضيين ، من ميدان الرمى ، إلى حلبة

(١) أذيعت خلاصة موجزة لهذا الفصل من محطة الشرق الأدنى

الفقه ، فكان واسع الصدر إزاء معارضيه

وآية قدرته فى الإقناع على طريقة الرياضيين ، إقناعه الرشيد ببراءته وهو يخوض بحراً من الدماء ، فقد صرع أمامه تسعة ، استلت السيوف اللامعة أعناقهم ، فلما جاء دوره أسعفته عارضته القدرة على أن يناقش الرشيد ويقنعه وهو فى هـذا الجو العاصف ، وإزاء هذه الشخصية الجبارة

لقد اتهم بالعمل ضد الرشيد وحمل مقيداً من اليمن مع عشرة من أصحابه ، فلما جئ بهم إلى الرشيد ، وضع حداً لأجلهم ، أما هو فقد أقنع الخليفة .. قال له وهو بين النطع والسيف ..

« .. يا أمير المؤمنين ما تقول فى رجلين أحدهما يرانى أخاه والآخر يرانى عبده .. أيهما أحب إلى ؟ قال الذى يراك أخاه ! قال : فذلك أنت يا أمير المؤمنين ». فلما وضع يده على الخيط .. مضى بقيته بقوة ، قال : إنكم ولد العباس وهم ولد على ، ونحن بنو عبد المطلب ، فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم ، وهم يروننا عبيدهم

... ونجا

وقد بلغ به حب الرماية أن لم يكن جلال السن والإمامة بمانعه إياه عن أن يرمى

وقالوا عنه إنه كان يقتصد فى لباسه ، ولم تعرف له صبوة ، وكان يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح ، فيجيئه أهل « القرآن » فيسألونه ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل « الحديث » يسألونه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا .. ثم تستوى الحلقة « للمناظرة » والمذاكرة ، فإذا ارتفع النهار تفرقوا ، ثم جاء أهل « العربية » والعروض والشعر والنحو حتى يأتى المساء .. والشافعى جالس فى حلقته لا يضيق بالعلم ولا بالناس

ولا عجب فقد كان الشافعى أديبا يتذوق الشعر ، ويقول أجوده ، ويقدر الجمال ويعجب به فى مختلف صوره النفسية والحسية، بل لقد كاد أن يكون أديبا خالصا أوفنانا خالصا ، لولا أن أتيحت له فرصة دراسة الفقه ، فمضى فيه ، حتى برز وبلغ القمة ..

وقد روى عن ذكائه وألمعيته وسرعة حفظه الكثير ، مما زاد فى قوة شخصيته أضف إلى ذلك ماروى من أنه إذا تكلم كان صوته أشبه بالصنج أو الجرس ، وكان إذا قرأ القرآن التف حوله الناس ، وضجوا بالبكاء .. قال بعض أتباعه « كنا إذا أردنا أن نبكى قلنا قوموا إلى هـذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن .. فإذا أتينا استفتح القرآن فتساقط الناس بين يديه وكثر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته »

ومن هنا جاءت قوته كداعية، يستطيع أن يجمع الناس حوله وأن يحببهم إليه ، وتلك من الشمائل التى لا تتوافر للكثيرين .

وقديما كان الصوت الجميل وطلاقة اللسان من أدوات الداعية الفذ

ويرجع السر فى فصاحة « الشافعى » إلى أنه أقام بالبادية فلقن اللسان العربى

وفى المدينة وصل إليه علم « مالك » كله ، فقد لزمه حتى مات ، وفى بغداد وصل إليه علم « أبو حنيفة » كله بعد أن حمله محمد بن الحسن .. ومن ثم اجتمع له علمان : علم أهل الرأى ، وعلم أهل الحديث

وقد وصل الشافعى بعلمه وثقافته إلى درجة المجتهدين ، وارتفع من أن يكون من أتباع « مالك » ، أو تلامذته الذين يجرون فى حدود مذهبه ، فكان ذلك مصدر الخلاف بينه وبين المالكية فى مصر ، وقد اقى من ذلك عنتا شديدا

وتوافرت للشافعى كل وسائل « العالم » ، كما توافرت له كل وسائل « الداعية » فقد أثر عنه أنه كان يذهب إلى الصباغين يتساءل عن معاملاتهم ، ويرتاد السوق يحدث أصحاب الحرف ..

وبلغت به الثقة أن كان يعرف أن أهل مصر فرقتان : فرقة مالت إلى قول مالك وفرقة مالت إلى قول أبى حنيفة ، ولكنه كان يقول فى حماسة ظاهرة « أرجو أن أقدم إلى مصر فآتيهم بشئ أشغلهم به عن القولين جميعا .. »

وقد حدث ما توقعه .. غير أن الخلاف لم يلبث أن نشب بين أتباعه وأتباع مالك فلقيه فتيان ابن أبى السمح المالكى ليلا فضربه أحدهم بمفتاح حديد فشجه .. فلم يسعف بالعلاج فمات .. وقد مات فقيرا ، ولم يترك شيئا يذكر ، وكان قد أجهد نفسه فى الفترة التى قضاها فى مصر إجهاداً بلغ به غايته

أنور الجندى

٢ - جـــوته

للأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

تابع ما نشر في العدد ٩٨٦

غوته يعتزل الحياة السياسية:

وأخيراً وصلوا إلى النتيجة الحتمة فقال: «كم أكون أحسن حالا وأهدأ بالا إذا أنا نسيت المشاجرات السياسية ووجهت قواي للعلوم والآداب التي لأجلها ولدت. وكل من يحمل حياته للوظيفة - إلا إذا كان أميراً سيدا - فهو إما أن يكون سخيفاً أو متعصباً أو مجنوناً». وبمرور الزمن أصابت غوته الهموم وهاجته الغموم، فأصبح مريضاً مرة أخرى وأراد التخلص من هذا الوضع الذي تردى فيه فقرر الفرار ناجياً بأهابه. وكان سبب ذلك - على ما نعلم - حادث غرام سقط في شبكته وذلك بتعلقه بالآنسة (فون شتاين) تلك الفتاة الغامضة الخفية، التي لم تخص من الجمال ولا من العاطفة بشيء يذكر. وقد كان لهذه الحادثة تأثير بالغ في حياته مدى جيـــل. ولو لم يغير مجاله لتحطمت حياته آنذاك، وكانت إيطاليا في هذه المرة محط رحاله - تحت سماء بهيجة رائعة وفي وسط شعب جنوبي، أما هـذه المرحلة من حياته فقد جعلها للتأمل في الفنون العظيمة، وكانت بمثابة تجربة أغنى بمعانيها وألطف في مدلولها من حادثة غرام تظاهر فيها الفروسية الكاذبة التي شاءت الصدف أن تفرض عليه فرضاً في (وايمر)

إن إدراك معنى هذه التجربة صعب جدا ليس علينا وحسب بل حتى على المؤرخين الأدباء ودارسي غوته، فهم لا يعرفون عنها شيئاً، وهم يعترفون بذلك صراحة. ومن اليسير علينا أن نشعر بما كان يشعر به من عواطف هي عواطف السعادة والتحرر والانعتاق، والتي يعبر عنها بتعجب بأقواله «إنني ولدت ولادة ثانية، ولادة حقيقية في اليوم الذي وصلت فيه روما» وأشعر «بشباب جديد، شباب ثان، إنسان جديد، حياة جديدة» و«أشعر بتغيير في نخاع عظامي». كل ذلك أظهره في رسائله التي بعث بها إلى (شارلوت فون شتاين) التي تركها بدون وداع

إن الشمول هو الغرض الأساسي الذي كان يسعى إليه جهد استطاعته؛ والكلمة التي كانت لاتفارق شفاهه باستمرار في ذلك الوقت، فالتاريخ الطبيعي والفن والأخلاق الخ أصبحت جميعاً منسجمة بنفسه؛ وقد علق على ذلك بقوله «إني أشعر أن شمسي تسطع سطوعا باهرا». أجل إن شمسه سطعت في تأملاته التي كان يخص بها الفنون القديمة، وكان ينظر إليها لا بمنظار رجل يدري شيئاً بعيدا عن نفسه، بل كان ذلك طبيعة نامية فيه، فقال عن نفسه «إن الطفل الربض والضعيف سابقاً يمكن أن يتنفس الحرية بطلاقة مرة أخرى»

ماذا عنت إيطاليا بعبقريته

ليس في مكنتنا سوى تخمين العوامل التي أثرت في شخصيته..

ومن هذه العوامل علاقته بجزرات البحر الأبيض المتوسط، التي كان لدمه بها صلة وكان لهذا العامل (اللاألماني) فوائد تحررية عليه، فهي التي وسمت غريزة العظمة فيه، وهذه الغريزة مستمدة من الغريزة التاريخية. وقد وضعت إيطاليا الصبغة النهائية على قسمات وجهه، فأصبح الألماني المهذب ذا وجه ألماني بالنسبة إلى وطنه، ووجه ثان هو أقرب إلى وجوه الوظفين المخجولين والمتظاهرين بالحشمة، وفي الوقت نفسه تغير فيه كل شيء فأصبح متزنا كاملا مكتفيا بذاته، منطويا في قرارة ذاته على نفسه وغدا اتصاله بالناس صعبا جدا، ولم يبق من صلاته الصداقية القديمة شيء يذكر، فشعر كل واحـد من أصدقائه بالبرودة المتجمدة التي كانت تظهر عليه

وقد علق أحد أصدقائه بعد أن قضى معه ليلة من الليالي بما يلي: «وشعرنا وكأننا نعيش في محيط بارد جدا وكانت السآمة تخيم علينا بثقلها، وأضحت شهامته ملاطفة وحشمته ظاهرية. أما (شلر) الذي لم يكن يلحظه غوته في غضون إقامته في أول شتاء قضاه في (وايمر) فقد حدثنا عنه بقوله «كانت له موهبة تأسر النـاس وتسحرهم سواء أكان ذلك في الأمور البسيطة أم الكبيرة، على أنه كان يحتفظ بنفسه فوقهم، وكان الناس يشعرون بوجوده بسرور بالغ، ولـكن وجوده كان كوجود الآله لا يعطي من نفسه»

ولكن عملا منافيا اقترحه بعث الناس ذوو الأخلاق العالية والسلوك الحسن على الغضب عليه، وتتلخص هذه الفعلة بإيوائه فتاة إلى سريره، وكانت هذه الفتاة جميلة جدا وجاهلة جدا، وكانت بائعة ورد واسمها (كريستيانا فولبيوس)، وكانت هذه العلاقة علاقة دعارة استفزازية صارخة، ومع ذلك فقد جملها بعد عدة سنين علاقة شرعية، ولكن المجتمع لم يغفر له ولا لها، وولدت كرستيانا له عدة أطفال، ولم يبق منهم في قيد الحياة إلا أوغست الذي وصل إلى منتصف العمر وأصبح ثقلا مرهقا على والديه بسلوكه المتوحش وأخلاقه الفظة وعاداته الذميمة وعربدته الشائنة

كان غوته يشبه في شبابه « أبولو » أو هرمز (اللهم إلا قصر ساقيه) يشبههما في رشاقته، ولكنه اكتسب سمنة عندما بلغ من الكبر عتيا، وكان ذلك في إيطاليا وفي بداية القرن الذي لازمه طويلا فأصبح وجهه بدينا كئيبا وخدوده متهدلة فتحول أبولو حتى غدا (جوبتر) بالذات، رأس رائع وحاجبان بديعان بارزان يعلوهما شعر غزير ملفوف معتنى به، وعينان سوداوان يشعان بالروح مظللتان بظلال التعب والكلل، كما أن لباسه كان يميل بمظاهره، إلى المحافظة، أما خشونته التي طالما كان يفتخر بالتظاهر والتباهي بها في شبابه فقد اتخذت شكلا واقعيا في سيماء الرجل العجوز، وهكذا اجتمعت فيه خشونة شكلية وتظاهر رسمي وخيلاء خادعة، فحولت كلامه إلى حديث رجل متعلم عادي

غوته يصبح أسطورة العظمة

تمتاز الفترة بين السبعين والثمانين من عمر غوته بأنها فترة العظمة الأسطورية، وبأنه أصبح المثل الحقيقي للثقافة الغربية في أوسع معانيها، فشرع الناس يحجون إليه من جميع أنحاء العالم، وكان غوته يكره النظر خلال النظارات، ولذلك لم يكن يحظى لابسو النظارات بحفاوته ! أما الزائرون الذين زاروا أماكن غريبة أو شاهدوا مناظر بديعة فقد كانوا محط حظوته والتفاته، وكانت أوامره إليهم تتلخص بـ « قف ! دعنا نقتل هذا الموضوع بحثا » . كانت فيه رغبة ملحة لمعرفة كل شيء، وإرادة للتصرف على جميع الحقائق التي يمتلكها الآخرون، وإذا ما أظهر أحد الزوار شيئا طريفا أو قدم معلومات ممتعة دعاه للعشاء معه، فيقدم له ما يشاء من المأكولات والمشروبات على طريقة الملوك، وربما سمح له بمشاهدة المجموعات النادرة من الزخارف النحاسية والأوسمة والآثار القديمة التي كان يحتفظ بها في قصره الفخم الذي أهداه إياه الدوق العظيم « قصر فراو بلات » ؛ إن الاحترام الهائل الذي حظي به الرجل كان راجعا بالدرجة الأولى إلى جلال كتاباته البديعة، وما من شك في أن أسلوب حياته وما كان يهواه من العلوم والهوايات أضفت ستارا شفافا ساحرا على شهرته كحكيم، ونسجت برودة من العظمة حول شخصه، بحيث أن كل ذلك كان يبدو جليا في الرسائل التي كانت تمتون إليه، فكان مراسلوه الفرنسيون يلقبونه بـ « السيد العظيم » وهو لقب الأمير، كما أن إنكليزيا كتب إليه بعنوان (إلى صاحب السمو الماطر الأمير غوته في « وايمر » . وقد علق الرجل الشهم « غوته » على ذلك بقوله « لعل الناس عندما يخاطبونني بهذه اللهجة يقصدون الإمارة الشعرية »

ولما مضى الشاعر العظيم لحال سبيله « كان الرجل الألماني العادي والذي لم يقرأ شيئا من كتبه يخاطب صاحبه بقوله « هل سمعت أن غوته العظيم مات ؟ » وكثيرا ما أوصلته الأمراض الشديدة إلى حافة القبر، ومن ذلك أنه في السنة الثانية والخمسين من عمره هوجم بمرض الحمرة البشرية ونوبة سعال شديدة، وبعد مرور أربع سنوات انقض عليه مرض النومونيا مع نوبات حادة، كما أن داء المفاصل ومرض الكلى هاجماه فاضطر إلى الرحيل إلى بوهيميا . وما أن أقبلت سنة ١٨٢٣ ـ وقد بلغ عندها سنه الرابعة والسبعين ـ حتى نجده واهن القوى روحيا وجسديا . كان ذلك بمثابة رجعة لوداع الحب في (ماري باد) ؛ على الرغم من أن المرض الذي أعقب ذلك كان صعبا وصفه، ولكنه كان قتالا في تأثيره

والخلاصة أن علاقته بالحياة أخذت تدريجيا تتعرض للخطر، واشد ما كانت هذه العلاقة موضعا لإيثاره وحبه وغرامه، فحاول جهد ما استطاع أن يتظاهر بالخشونة كي يلعب دوره الذي قدر له، دور ابن الأرض القوي، دور ابن شجرة التبق،

وكثيرا ما كان يباهى بذلك . أما أسلوب حياته فكان صحيا ، ولكنه كان أكولا متحمسا ، وكان يمير شهيته الشئ الكثير من التفاته مع كراهية للكعك والحلويات

إن غوته يمكن أن يعتبر — بمقاييسنا الخاصة — مدمنا للخمر ، لأنه كان يشرب قنينة كاملة من الشراب فى العشاء علاوة على عدة أقداح من الشراب الحلو فى وقت الغداء ، وكانت عادته ذم الأشخاص الذين يفقدون حيويتهم بسرعة ، وقد أشار إلى ذلك فى حديث طريف مع أحد أصدقائه - وقد بلغ آنئذ الحادية والثمانين - فى معرض كلامه عن وفاة (سومرنغ العالم الألمانى الشهير فى التشريح) فقال : «وسمعت بأن سومرنغ توفى فى الخامسة والسبعين من عمره التعس وحسب . إن الناس جبناء فهم لا يملكون القوة الكافية للاحتفاظ بعمر أطول من ذلك ، وعليه فليس لى إلا أن أمدح صديق «بنتام» الاقتصادى الإنكليزى ، ذلك الراديكالى المجنون لأنه أكبر منى بأسابيع قليلة » فأضاف مشاركه فى الحديث بقوله « ياصاحب الفخامة لو كنت ولدت فى إنكلترة مثله لأصبحت راديكاليا مشابها له ولانتقدت معايب الحكومة كما فعل هو » فما كان من غوته ، وكانت سحنته تشبه سحنة (ميفستوفيليس) إلا أن يجيب « وماذا كنت تظن ؟ لو أننى ولدت فى إنكلترة لأصبحت دوقا أو مطرانا دخله ثلاثون ألف جنيه استرلينى » إن هذا هو التفاخر بعينه ، والتبجح السافر ، والشعور الراسخ بالتفوق ، إنه كان يعتقد بصورة أسطورية بأنه لا يمكن له إلا أن يولد تحت أحسن الظروف ، وأن الانتقادات لا تصدر إلا من أناس ليسوا حائزين على امتيازات ومواهب خاصة

جوته فى أوج قوته

كان غوته معجبا بشعار خاص هو (الجزاء الكامن) فى هذا التعبير الذى لم يكن يقف (يصمد) أمام النطاق ، ولكنه كان بدهيا على شفتيه ، ماذا يعنى هذا التعبير ؟ إن الجزاء ليس كامنا ، إنه يحقق ويحصل عليه ، وكل شئ كامن ليس فيه للانسان فضل « اللهم إلا إذا فصلنا الكلمة من مضمونها الأخلاقى » وهذا ما يقصده هو بالذات . إن هذا التعبير تجن واضح على الأخلاق ولكل نضال واجتهاد . وقد اعتاد غوته أن يقول مفسراً بذلك نظريته « يجب أن يكون الإنسان شيئا كى ينتج شيئا » أو بكلمة أخرى إن ما كان يعنيه لا يخرج عن كون الفضل والكرم فى الوجود حاصلا بصفته وجوداً لا بصفته عملا ، وقد عبر عن عقيدته هذه بصور متنوعة ، ولكن الجملة التالية هى أحسن ما أراد أن يقوله « كثيراً ما سمعت الناس يقولون : آه لو أن التفكير لم يكن صعبا لهذه الدرجة ، ولكن الشئ المزرى ، أن أية كمية من التفكير لا تساعد الإنسان على التفكير ، بل يجب أن يكون تفكير الإنسان صحيحا بالطبيعة كى تقف جميع أفكارك الجيدة أمامك ، كما يقف أبناء الله الأحرار فينا دونك بقولهم : نحن ها هنا » . الطبيعة ! لم يكن غوته - فى قلبه - ابن أبيه مطلقا ، ولو أنه لحد ما يعيد بعض الميزات الأبوية ، ولكنه فى الحقيقة ابن أمه ، ابن «فراو أجا» — بنت الاندهوري — تلك الفتاة ذات المزاج الشفاف ، وأكثر من ذلك كان فى الحقيقة ابن الأم الكبيرة ، ابن الطبيعة نفسها . أما فكرته عنها فكانت الكمال بعينه وضرورة الوجود الذى كان متعلقا به أشد التعلق ، ومفهومه له كان لا يتعدى عالما حرا من الأسباب والتصاميم المتداخلة فى عالم يعيش فيه الشر جنبا إلى جنب مع الخير ، وقد بين ذلك بصورة جلية بقوله « نحن نناضل فى سبيل جعل الفن كاملا بذاته . أما هم « يعنى الأخلاقيين » فيفكرون فى التأثير الخارجى ، هذا التفكير الذى لا يهم الفنان الحقيقى كما لا يهم الطبيعة نفسها ، فهى عندما تبدع أسدا أو طيرا لا يهمها أن نلاحظ شيئا من ذلك » . فوهبته المبدعة كانت هبة من الطبيعة التى تحتضن الشر والخير سواء بسواء . فكما أن تأليهه للطبيعة كان المنبع الرئيسى لطيبته ، كذلك كان فى نفس الوقت منبعا للا مبالاته وقلة حماسته وسخريته من الأفكار وكراهيته للتجديد ، الذى كان يعتقد بأنه محطم للحياة نفسها . وهذه هى الأشياء الوحيدة التى كان ينتقد عليها . وعليه فليس غريبا أن نرى مقته للثورة الفرنسية مع أنه بشر بمبادئها ومهد لها بكتاباته ، أما مؤلفه «آلام فرتر» ، الذى أنتجه فى عنفوان

شبابه ، والتى كانت فيه العاطفية واضحة بارزة ، فقد هز أسس النظام الاجتماعى القديم هزا عنيفا . إن موقفه هذا تجاه الثورة الفرنسية يعيد إلى الذاكرة موقف أرازموس تجاه « الإصلاح الدينى » ، أرازموس ذلك الهولاندى العظيم الذى عمل جهده للتمهيد للاصلاح ، ولكنه تنكر له بتقزز وامتعاض . وقد جمع غوته نفسه هذين الحادثين « القلقين » ببيته المشهور لا فى هذه الأيام ، أيام الاضطرابات ، رفضت الغالية (١) الثقافة الهادئة ، كما فعلت اللوثرية ذلك فى عهدها » . وهو كذلك ، وكذلك فعل عندما رفض القيمة الكاردينالية التى قدمها البابا إلى (الإنسانى العظيم (٢)) وقد اعتذر عن ذلك بأعذار رقيقة ، فهو لم يرد أن يجعل من نفسه حليفا للنظام القديم الذى انهارت معظم قيمه ، ولا نصيرا للنظام الجديد الذى اعتبره غير مهذب ، ومع كل ذلك فسياسة غوته المحافظة كانت مزعزعة لا يركن إليها ولا يعتد بها . ولما أصدر (فريهر فون كاكدن) سنة ١٧٩٤ بيانه المعروف الداعى إلى توحيد المثقفين الألمان كى يضعوا أقلامهم فى خدمة (الصالح) — أى قضية المحافظين — ولكى نكون أكثر دقة ، إنشاء اتحاد ألمانى لتخليص البلاد من الفوضى ، وقف غوته صديق كارل أوغست المخلص وشكر البارون لثقته به ، ولكنه اعتذر بقوله (إنه من المتعذر ربط الأمراء والكتاب فى قضية واحدة) ، فانسحابه هذا ، ومحاولته الابتعاد عن كلا الجانبين ، ينطبقان تماما على إرازموس أيضا ، ولكن غوته كان إرازموس ولوثر متقمصين شخصا واحدا ؛ كان اتحادا لطيفا وشيطانيا فى نفس الوقت ، وكان وجوده يمتاز بكونه مثالا وقدوة لغيره . كان مثالا يحتذيه الألمان ، وقد تمكن بنفسه من تحقيق المثالية الألمانية لا بل مثالية الإنسان ، ومع ذلك فقد وقف كثير من معاصريه وقد بلغ بهم الأذى والمرارة حدا جعلهم يكرهونه ، وقد عبر عن ذلك بورن بقوله (إن قوته كانت قوة تخريبية بدلا من أن تكون قوة إنشائية ، وقد كانت مانعا للتقدم وخصوصا جموده السياسى ، وطبيعته الكارهة للفكرة الديمقراطية الوطنية التى كانت تمثل العصر ، فكان يعارض حرية الصحافة وحرية التقدم والديمقراطية والقانون ، وكان يعتقد بأن كل شىء معقول فى ظل الأقلية) . وكان يؤيد الوزير الذى كان يطابق خططه ضد رغبات الشعب ، وكان يشعر شعورا عميقا بالغرور الإنسانى ، وقد اعترف يوما ، بأن مجرد النظر إلى وجهه يكفى للتخلص من الكآبة ، ولكنه لم يكن يؤمن إلا إيمانا ضئيلا بالإنسانية ومستقبلها الحسن ، فلا يمكن تسليم الناس العقل والمداراة ، ولا يمكن إنهاء الحروب وإراقة الدماء والتذبذب فى الشؤون العامة

(للكلام بقية) بعقوبة — يوسف عبد المسيح ثروت

(١) الغالية هى الفرنسية نسبة إلى الغول : أجداد الفرنسيين

(٢) الإنسانية (humanism) : مبدأ أدبى فى عهد الإصلاح وكانت الغاية منه نشر الفنون والآداب اليونانية والرومانية

نساء عرفن فى زمن النبى

للأستاذ ناصر سعد

هذه نبذة مختصرة عن نساء عرفن فى زمن محمد (ص) منهن من اشتهرن بعمل خير أفدنه به فتركن لأنفسهن أحسن الأثر بنفسه فأثنى عليهن .. ومنهن من دعون لإيذائه ومحاربة دينه الحنيف الجديد فتركن لأنفسهن أسوأ الأثر بنفسه وغضب الله عليهن ورسوله ؛ ولا ريب فى أن الخيرات منهن اندفعن وراء إخلاصهن للرسول العظيم ووراء إيمانهن بدينه الجديد فأتين بما بهر من الأعمال وخلدن أسماءهن فرقين مكانة عالية فى الإسلام والتاريخ تحفز المرأة الحديثة إلى اقتفاء آثارهن والتحلى بصفاتهن الحميدة ؛ وأما الأخريات اللواتى دعون لإيذائه ونبذدينه فقد اندفعن وراء عصبيتهن لغشاوة كانت ترين على قلوبهن حتى تبين للبعض منهن الحق من الباطل فبايعن ، فتسرب الإيمان إلى قلوبهن وأسلمن وعدن يخدمن الإسلام مكفرات عما سلف من أعمالهن فعفا عنهن الرسول (ص) . ومن أولئك النساء :

آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أم النبى (ص) حملت به فكان كل مافى الدنيا بهيجا بعينها ، تبتسم لها الحياة فتبتسم لها ، وليس يسعد المرأة أكثر من مولود تضمه بعد مشقة الحمل والولادة إذ يهون عليها كل ألم لابتسامة تنتظرها من مولودها الذى تضع فتحنو عليه وتحبه ، لأن بهذا الحب سر الوجود والحياة ، وما زالت الحياة تبتسم لابنة وهب حتى ذهب عنها شريك حياتها عبد الله بن عبد المطلب وهى ما زالت تحمل جنينها — على أصح الأخبار — فبدت فى سماء حياتها سحابة سوداء أزالت من ثغرها تلك الابتسامة والبهجة ، وملأت قلبها عزماً وحزماً صممت بهما أن تربى مولودها المرتقب خير تربية ليمحو ما بقلبها من الحزن بدعابته وابتسامته ، فولدته وعلى محياه سيماء النبوة ، وأرضعته بلبان الشرف والسؤدد . ثم إنها إما لضعف اعترى صحتها أو لعادة كانت جارية آنذاك أرضعت وليدها من ثويبة مولاة أبى لهب التى أرضعت عمه حمزة (ض) ثم أرضعته أم كبشة حليمة بنت أبى ذويب السعدية التى أرضعت معه عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ولم تزل آمنة تجد بتربية ولدها بكفالة جده حتى ظهر من حسن خلقه وجمال طبعه — على صغر سنه — ما يدهش ويحير . فمن ذلك أنه لما كفله عمه أبو طالب بعد وفاة أمه وجده ، وعمره سبع سنوات ، كان حين يجلس مع صبيان البيت يكف عن النهب وتمتنع يداه ، على عكس لداته من الأطفال ، مما اضطر عمه أن يعزل له طعامه ، وليس لنا أن نقول إن ظهور هذا من محمد (ص) كان ليتمه وشعوره بالوحدة.. كلا فإنه تربى فى هذا البيت وألف صبيانه . وإنما ذلك سر إلهى ونتيجة للتربية الصحيحة التى نهجتها آمنة بتربية ولدها ، لأن للمرأة الأثر المباشر فى تربية وليدها وتنشئته ، هذا هو أثر آمنة بنت وهب فى حياة سيد البشر (ص)

ومنهن مرضعته حليمة السعدية التى مر ذكرها .. وهذه المرأة كانت على جانب عظيم من حسن الطبع وجمال الخلق ورقة القلب ؛ فرضعات بنى سعد كن يأتين مكة ليرضعن أبناء أشرافها لضيق ذات أيديهن ، ولم تجد حليمة غير يتيم عبد المطلب لترضعه فحركها العطف عليه وهى لا تنتظر من المال ما ينتظره صويحباتها اللواتى رافقنها إلى مكة لغرض الإرضاع ؛ فهى لو لم تكن ذات شرف وخلق قويم وقلب رقيق لم ترضع عبد المطلب حفيديه محمداً وأبا سفيان منها ، فهى من بنى أسد بن بكر بن هوازن وتنتهى لقيس عيلان .. بقى النبى (ص) عندها أربع سنوات ربته على المروءة والشهامة والصدق والأمانة ثم ردته إلى أهله وعمره خمس سنين وشهر واحد . وقد أحب النبى مرضعته حبا كثيراً حتى أنه لما أخبرته بعد فتح مكة إحدى نساء بنى سعد بوفاتها ذرفت عيناه عليها ثم قالت له الناعية : — (أخواك وأختاك محتاجون) فأرسل إليهم مايحتاجونه . فقالت له تلك الناعية : — (نعم والله المكفول كنت صغيراً ، ونعم المرء كنت كبيراً عظيم البركة) .. لا ريب فى أن الذكريات تلك الساعة عادت برسول الله فتذكر أيام طفولته وحنو مرضعته عليه والفته مع إخوانه ، إنها لساعة حلوة مرة اختلطت بها ذكريات الطفولة السعيدة وجلال الموت . . هذه حليمة التى ذرف عليها دمع النبى (ص) تركت ولا شك أثراً عميقاً بقلبه الرقيق الحساس

ومنهن أم أيمن (بفتح ميمها) بركة الحبشية مولاة عبد الله أبيه، حضنت محمداً بعد وفاة أمه. ولاريب في أن هذه المرأة وقد احتواها بيت عبد المطلب وخدمت ابنه عبد الله كانت امرأة بارة بمحمد، تعترف بجميل جده وأبيه، وتقدر أثر اليتم بنفس ربيبها وشعوره به، فأحاطته بعطفها وحنانها، وخففت عنه ذلك الألم وهو الطفل المرهف الحس فاعتاض بها عن أمه ، كان لها جليل الأثر في نفسه

ومنهن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ابن كلاب المرأة الحكيمة الموسرة كلمها أبو طالب في أن توكل محمداً على تجارتها وهو الصادق الأمين، فتأملت وهي المرأة الرشيدة فآنست خيراً ووكلت محمداً واشترطت له كل سفرتين بقلوصين ، فصار يذهب بتجارتها ويقدم إليها الربح الجزيل بأمانة وإخلاص، فلما أعجبها إخلاصه وأمانته وصدقه عزمت على التزوج منه ولم تكن معه على صلة متيسرة بدليل وساطة نفيسة بنت منية أو كما قيل بوساطة ميسرة مولاها بينهما . وكان أبوها خويلد يرغب عن تزويجها من محمد، فاحتالت بأن دعت قوماً من قريش فيهم أبوها وقدمت إليهم طعاماً وشراباً ، فلما أكلوا وشربوا وثمل خويلد قالت له : — (إن محمد بن عبد الله يخطبني فزوجني إياه) فزوجها ورضي بذلك ، فقامت إليه وألبسته وطيبته على عادة من يزوج ابنته آنذاك ، ولما أفاق ورأى ما هو فيه سألها يقول : — (ما شأني ؟) قالت : — (زوجتني من محمد بن عبد الله) . قال : — (أنا أزوج يتيم أبي طالب ؟ لا لعمري) قالت : — (ألا تستحي.. تريد أن تسفه نفسك عند قريش فتخبر الناس أنك كنت سكران ؟) ثم رضي بعد إلحاح وتم الأمر ، وعمرها أربعون سنة ولمحمد من العمر خمس وعشرون سنة . . إن هذه الرواية لخير دليل على تعلق خديجة بمحمد وحبها إياه لما اتصف به من الخلق الحميد، وإلا فلا يعز عليها الرجال وهي الشريفة الموسرة .. وليس فضل خديجة على الإسلام بمجهول ولا مداراتها للنبي بمنكورة، فلقد كان لها رضي الله عنها أطيب الأثر بحياة الرسول قبل النبوة وبعدها إذ كانت تزوده بما يكفيه من الطعام فيذهب لغار حراء يقيم فيه الأيام والليالي متعبداً مفكراً في أمر ربه . ولما جاءه الحق من ربه رجع لخديجة وهو يرجف ويقول : — (قد خشيت على عقلي) فشجعته وثبتته وقالت : — (أبشر — والله — لايخزيك الله أبداً .. إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر) ثم صدقته وأسلمت ؛ هذه سيدة قريش التي كان لها الأثر الفعال بحياة محمد (ص) والتي كانت أول أم للمؤمنين

ومنهن أسماء بنت أبي بكر (رض) كانت ذكية الفؤاد شديدة الحرص والحساسية، بدليل تمكنها من نقل الزاد للنبي (ص) وأبيها (رض) وهما مختفيان في الغار.. فلم يطلع على سرها أحد من قريش.. إذ لولا يقظتها لتمكنوا من معرفة مكان النبي ولحقوا به الأذى . إن تاريخ هذه المرأة في الإسلام معروف، وإنما أوردنا منها هذه النبذة لنتصور أثرها بقلب الرسول في تلك الساعات الحرجة الرهيبة التي هدر بها دمه مذ صمم أهل مكة على قتله

ومنهن أم معبد عاتكة بنت خالد بن خليف الخزاعية ، وهذه المرأة لما توجه النبي إلى المدينة وقد اقترب منها ونزل بيتها فقال عندها وظهر من آيات معجزاته ما أدهش أم معبد فقد مسح ضرع شاة لها فحلبت لبنا كثيراً وبقيت كذلك للسنة الثامنة عشرة بعد يوم الهجرة، ومن ذلك ظهور البركة في الطعام الذي قدمته أم معبد للنبي فأكل منه وتزود وكان قليلا بعينها . هذه عاتكة الخزاعية هي التي صارت فيما بعد داعية للنبي ودينه الجديد تبشر به لإعجابها بسمو أخلاق نبيها وآيات معجزاته

ومنهن عائشة أم المؤمنين (رض) بنى بها النبي في المدينة بعد الهجرة بتسعة أشهر، وأثرها بحياة الرسول أشهر من أن نترجم له، فقد أحبها الرسول وصارت بعد وفاته ثقة برواية الحديث الشريف . وقد كانت من النساء اللواتي يمتنن بالمحاربين في الغزوات فتقدم إليهم الماء والطعام محمولا على ظهرها

ومنهن عصماء بنت مروان الأموية كانت تكره النبي وتؤذيه وتحرض الناس وتؤلبهم عليه وتعيب دينه ، فكان لهذه المرأة وهي على هذا الوصف أسوأ الأثر بقلب النبي (ص) ولقد رأيناه يجد من قتلها وفتك بها ، وذلك أن عمير بن عدي وهو أعمى من رهطها وكان مواليا للنبي.. حلف ليقتلنها إذ عاد النبي من بدر لأنها كانت تؤلب الأعداء عليه، فلما رجع ذهب إليها عمير ليلا فوجدها

نائمة ولها رضيع يرضعها فأبعده عنها وغرس سيفه فى صدرها فقتلها وخرج دون أن يعرف أحد بأمره، فلما كان الصبح جاء عمير إلى المسجد ليصلى مع النبى، ولما صلى وانصرف نظر إليه النبى وقال : — (أقتلت ابنة مروان ؟) قال : — (نعم يارسول الله) قال : — (نصرت الله ورسوله) فقال عمير : — (هل على شئ من شأنها يارسول الله ؟) فقال النبى : (لا ينتطح فيها عنزان) .. هذه المرأة التى كانت تؤلب الأعداء على النبى وتدعو لإيذائه كانت ولا شك على وئام مع أعدائه الذين كان منهم اليهود فقبحها الله وقبح ما كانت تدعو له ..

ومنهن سلافة بنت سعد بن الشهيد زوج طلحة بن أبى طلحة ؛ كانت من أعدى أعداء النبى ويكفى تبياناً لذلك تحريضها ذويها على المشاركة فى الحرب ضده فى غزوة أحد ، وأنها وضعت مائة من الإبل جائزة لمن يأتيها به ، وكان أن حمل زوجها طلحة راية المشركين بإحدى الحملات فى أحد فقتل ثم حملها بعده ابنها أبو شيبة فقتله حمزة (ض) وحملها بعده أخوها أبو سعد بن طلحة فقتله سعد بن أبى وقاص ، فحملها بعده ابنها مسافع بن أبى طلحة فقتله عاصم بن ثابت ، فحملها بعده ابنها الحارث فقتله عاصم أيضاً . هذه المرأة التى جملت بيتها بوتقة يغلى بها الحقد على رسول الله زاد هذا القتل فى حقدها عليه وعلى المسلمين معه فحلفت لتشربن الخمر فى قحف عاصم بن ثابت قاتل ولديها مسافع والحارث فأخذت تحث المشركين على الثبات وتدعو لحمل اللواء حتى تداول حمله كثيرون من قريش كان نصيبهم القتل ، فحملت عمرة بنت علقمة الحارثية الراية بعدهم فتراجع المشركون يطلبون السلامة.. وفى ذلك يقول حسان بن ثابت (ض) معيراً إياهم

عمرة تحمل اللواء وطارت   فى رعاع من القنا مخزوم
لم تطق حمله الزعانف منهم   إنما يحمل اللواء النجوم

ومنهن فاطمة الزهراء وأثرها بحياة النبى غير خاف على أحد فهى حبيبة أبيها وأوثق الناس صلة به وأشفقهم عليه..خرجت مع نساء من المدينة وهى تلهف على أبيها .. فقد جرح بأحد فلما رأت جراح وجهه احتضنته وعانقته وصارت تمسح الدم منه ثم أخذت ماء وغسلت وجهه .. ما أروعه من موقف خفق فيه قلب محمد بحب ابنته وحنوه عليها.. وكأنى بالزهراء (ع) تلك الساعة يترقرق الدمع من مآقيها ويخفق قلبها بالحب والحنان . هذه الزهراء وماأنصع حبها لأبيها وما أحسن إسلامها..خرجت هى وأربع عشرة امرأة منهن أم سليم بنت ملحان وعائشة أم المؤمنين (ض) فحملت الماء فى قربة والزاد على ظهرها تطعم المؤمنين المحاربين وتسقيهم .. هذه الزهراء أم حفيدى الرسول تركت أجل الأثر فى قلب أبيها الحنون

ومنهن هند بنت عمرو بن حرام زوجة عمرو بن الجموح.. امتلأ قلبها بالإيمان وحب الدين الجديد، فلم تزل تحرض ذويها على قتال المشركين فى أحد حتى استشهد زوجها وهو يقاتل رغم عرج كان به.. واستشهد ابنها خلاد وأخوها عبد الله فحملتهم على بعيرها وأتت المدينة فرأتها أم المؤمنين عائشة (ض) بظاهرها وقد خرجت تتروح مع صويحبات لها .. فقالت لهند: — (عندك الخبر .. ماوراءك ؟) قالت هند: — (أما رسول الله فصالح وكل مصيبة بعده جلل) قالت عائشة : — (من هؤلاء ؟) قالت : (أخى وابنى خلاد وزوجى عمرو بن الجموح) قالت : — (فأين تذهبين بهم ؟) قالت هند : — (إلى المدينة أقبرهم) ! ما أكبر هذا القلب قلب هذه المرأة وما أعمره بالإيمان ! وأى رجل يحمل مثل هـذا القلب وأية امرأة ... يا للعجب امرأة تفقد زوجها وابنها وأخاها فى يوم واحد فلا يرتجف لها قلب ولا تدمع لها عين ! إنه حال مدهش والله ... ولكن لا عجب ولا دهشة فإن الإيمان بالله وحب الشهادة فى سبيل الدين لا يجعلان متفذاً للحزن فى القلب .. ما أعظم هذه المرأة إذ قالت للرسول (ص) حين ذكر قتلاها : — (يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى معهم) إنها لم تقل هذا جزعاً من الحياة بعد ذويها ، بل قالته حبا بالشهادة فلعلها تنالها مدافعة عن دينها الذى آمنت به وطهر قلبها من كل رجس

البقية فى العدد القادم   ناصر سعد

مواكب القلوب

للأستاذ علي محمد السرطاوي

ملئت الشجرة المثمرة، يا إلهي، أن تملن من نضج الفاكهة التي تحملها أفنانها بين الأوراق الخضر، بعمان من الألوان، وكلمات من الأريج

وكسوت الورود والرياحين الغلائل المصبغة بألوان الشفق والفجر وقوس السحاب، وجعلت لها ألسنة من العبير، تهمس بها الأنسام في أذن الفراشات الراقصة في عرس الطبيعة ومواكب الربيع

وألبست الروابي، والوهاد، والمروج، الحلل السندسية الخضر الموشاة بالألوان التي لا تحصى من الأزاهير؛ تطل من ورائها الأسرار المتوارية وراء لسان الطبيعة الأبكم، ونواميسها الأبدية الثابتة؛ فراحت الأجناس من كل ما يدب على هذا البساط الأخضر ويتحرك، مدفوعة نحو أجناسها، في جنون من العاطفة المشبوبة والحس المخدر، إلى حيث تدري أو لا تدري، فوق ألسنة من لهيب يحرق ولا يميت، ووراء الصوت المدوي في الأعماق، والجوع الذي لا تشبعه النظرات، والظمأ الذي لا يصل إليه الارتواء أبدا

وجعلت لقلب المرأة لسانين فصيحين بارزين في أجمل مكان من صدرها؛ يصرخان في ظمأ قاتل، ويبحثان في جهد لا يبلغه النصب عن طيف الحبيب المجهول؛ بعمان من كبرياء الجمال، وألفاظ من دلال الحسن، وتعابير من اهتزاز ساحر عنيف وراء الغلائل الشفافة التي تكبح جماحهما، كما تكبح اللجم الجياد، فيتراءى من خلفهما جمال الربيع الدائم ومعانيه

سبحانك يا إلهي! لقد أقمت في الطبيعة الجمال البكر الفاتن؛ يتجدد ولا يفنى؛ واختصرت هذا الجمال الأبدي البديع في أروع ما صنعت يداك؛ فخلقت المرأة وجعلتها الرمز الخالد لأسرار الطبيعة وجمالها، وجلالها، وجبروتها، وفتنتها، فكانت المعجزة السرمدية الأولى والأخيرة التي شاءت قدرتك أن تكون صورة مصغرة لأروع وأجمل ما في الوجود؛ جعلت الظلام الحالك شعرها حينا، وذهب الأصيل حينا آخر، والنور المشرق وجهها، والبانة قوامها، وعبير الأزاهير أنفاسها، وحمرة الشفق وجنتيها، واللؤلؤ ثناياها، وأوراق الورود شفتيها، ثم اختصرت كل هذا الجمال العبقري المركز لتصنع به عينيها؛ فتدافعت بالمناكب وراءهما أطياف مجنحة من الماضي والمستقبل ونواميس الطبيعة وأسرار الغيب وجمال الوجود

وحين ترسل المرأة رسالة الحب الأولى إلى القلب الظامئ الخلي من أطراف عينيها، إنما تبعث إليه بأطياف عابرة من سعادة السماء في جنات الخلود وفردوس النعيم

وحين يحكم الحب القلب الإنساني وتجلس حواء على عرش الحب فيه، إنما تحمل إليه أقوى ما في الطبيعة من جبروت العواصف العاتية، والبراكين الثائرة، والأنواء المزمجرة، والبروق الخاطفة، والرعود المقهقهة، وتشيع فيه فتنة الربيع، وجمال الشفق، وسحر الفجر، وخرير الأمواه، وأغاريد الطيور

لقد أوشكت حواء يا إلهي أن تنازعك السلطان في الأرض وتصرف من حبك القلوب؛ عبدها البشر في طفولة الحياة الإنسانية، وشادوا لتلك العبادة الهياكل والمعابد، وما زالت عبر العصور معبودة القلوب؛ هياكلها القصور الباذخة، والأكواخ المتواضعة، والخيام الساذجة؛ تركع الحياة ذليلة على أقدامها؛ تعز وتذل، وترفع وتخفض، وتهز الدنيا إذا شاءت بيسارها

والمرأة كالمرآة الصافية الأديم؛ تظهر جوهر القلب الذي يحمل حبها، فيتراءى في ذلك الجوهر وراء الضباب الكثيف من الدم واللحم، صافيا نقيا. ولذلك كان الحب محك الصفات، وميزان السجايا، ومقياس الضمير؛ فلكم انخفضت نفوس وارتفعت أخرى حين اتصل بها حب المرأة في الحياة

وكلما تحركت مواكب الربيع المعطار في أعراس الطبيعة؛ توقظ الحياة وتحركها في مواعيدها التي لا تتبدل، أقبلت مواكب القلوب الظامئة في زوارق الشباب، تعبر عباب الزمن إلى الضباب الكثيف وراء الأفق البعيد المجهول

لم تكن الفنون الجميلة في حقيقتها إلا القرابين؛ قدمتها القلوب راكعة أمام طيف المرأة الساحر الجميل في عصور التاريخ؛

فالموسيقى ، والشعر ، والرسم ، والنحت ، والتمثيل ، والغناء ، ليست غير الأنين القاتل انبعث من حناجر القلوب ، وهي ترفرف محترقة ، حائمة ، حول قلوب بنات حواء ، اللائى قد أقمن حولها ألسنة محرقة من لهيب الجحيم

شد ما يلق القلب الذى تناديه المرأة للحب من عذاب في حبها ؛ يراهـا في أحلامه ، ويرتسم وجهها الجميل على كل ما تبصر عيناه ، ويتردد اسمها مع الوجيب وراء ضلوعه ؛ فكأنما استطاعت نظرتها الأولى أن تحمله إلى عالم قفر لا يرى غيرها فيه

وتبقى الحيـاة لغزا مبهما غامضا أمام القلب الإنسانى حتى تشرق شمس الحب فيه من نظرة امرأة ؛ فإذا الدنيا غير الدنيا ، وإذا الحيـاة غير الحياة ، وإذا السماء تتلاقى مع الأرض لتمـلأ جوانبها بكل ما فيها من خير ونعيم

لقد كان العباقرة والشعراء والفنانون من صنع المرأة ، وكان المجرمون والمحتالون والأشرار من صنعها أيضا ؛ وكلـما رأيت إنسانا قد رفعته الحياة على هامتها ، فابحث عن اليد الناعمة التى رفعتـه إلى ذلك المكان ؛ وإذا رأيت إنسانا آخر يهوى فى الجحيم ، ففتش عن القدم الناعمة التى سحقته تحتها ، فى غير ما رحمة إلى حيث لا يعود

والمرأة كتلة محترقة من الإحسـاس الدقيق العنيف ، متطرفة إلى أبعد غايات التطرف ، لا تعرف الاعتدال ولا ترى إلا عند الطرفين المتناقضين . فإذا اضطرم قلبهـا بالحب ضحت بكل شئ وبحياتها فى سبيل الحبيب ، وإذا خفق ذلك القلب بالبغض وماش الحقد فيه ، انقلبت إلى عملاق لا يعرف الرحمة ولا يعرف الحدود فى طريق الحقد والانتقام والأذى

وحواء كالعاصفة لا تهدأ أبدا ؛ تهز كل ما حولهـا هزا عنيفا ، شأنها فى ذلك شأن الإعصار المدمر العاتى ، وهى كالنار تحرق نفسها ، وتحرق كل شئ حولها

وحين خلق الله وجه المرأة ، كما يقول الرافعى ، رضوان الله عليه ، طوى أشعة القمر بعضها إلى بعض فـكون منها ذلك الوجه المشرق الجميل ، وانتزع من أعماق الشمس كتلة ملتهبة أودعها وراء ضلوعها فـكانت قلبها ، وغدت بالفطرة فى سجيتها نورا ونارا ، نسمة وإعصارا ، بناء وتدميرا

لقـد نزل بالأمس القريب فى سبيل المرأة ملك عن عرش الأرض ليجلس على عرش الحب فى قلبهـا ، ولـكن العواصف التى هبت عليه من بين جوانحها ، حالت بينه وبين الوصول إلى ذلك العرش الخالد ، فعاد أدراجه ، ينادى عليها فى الفلوات بعد أن أدبرت عنه ، ويجرى فى يأس قاتل وراء السراب فى فيافى الحب وصحراء الخيبة

أسعد إنسان فى الوجود ذلك الذى تفتح له المرأة قلبها على مصراعيه ثم تغلقه بعد أن تجلسه على عرش الحب فيـه . وحين تغلق المرأة قلبها على حبيب ، لا تستطيع قـوة فى الوجود أن تخرجه منه ، أو تضع إلى جانبه حبا جديدا

لقد تـكون الدر فى أصدافه تحت أمواج البحر للمرأة ، والذهب والأحجار الـكريمة فى طبقات الأرض للمرأة ، وكل ما تنبت الأرض من ورود ورياحين وطيب للمرأة ، وكل ما تنتجه العبقرية الفنية من صناعة ونسيج للمرأة ، وكل ما يشاد من قصور المرمر للمرأة

لقد شيدت قصور الحدائق المعلقة فى بابل القديمة لامرأة ، وتاج محل فى الهند لامرأة ، وقصر الحمراء فى الأندلس لامرأة ، وتهدمت طروادة بعد عشر سنوات من حروب دامية بسبب امرأة ، وامتدت يد لادى هاملتون فأزاحت الستار عن عبقرية الأميرال نلسون ؛ ويد جوزفين عن نابليون ، وبياتريس عن دانتى ، وكليوبطرة من يوليوس قيصر ، وليلى عن المجنون

إن عين المرأة دائبة البحث فى الحياة عن مجنون يهيم بحبها ، ولـكل امرأة فى حياة قلبها مجنون يهيم بهـا وتهيم به فى حب صحيح . والمرأة حين تبحث عن ذلك المجنون فلا تراه فى حياتها، إنمـا يكون ذلك إيذانا بانهزامها من الحيـاة وفشلها ؛ وحين تفشل المرأة فى الحب ، يقودها الفشل إلى طريق القبر الموحش الحزين ؛ وتنطوى على نفسها فى صمت كئيب قاتل طويل ، يذهب ربيع الحب منه ، ويقبل الخريف عليها فيه فتذوى معه كما تذوى أوراق الدوح فى قبضة الأعاصير

الحب حياة المرأة ، وما أقسى تلك الحياة إذا لم تعثر المرأة فيها على الحبيب فى مسالك الوجود ! وما أشد تعاسة القلب ، تجمعه روابط الزواج بامرأة ، وبلاقيها فى أجمل ليلة فى الحياة ،

زعماء التاريخ :

مصطفى كمال أتاتورك

للأستاذ عبد الباسط محمد حسن

« لم يكن مصطفى كمال . رجلا من رجال المصادفة والحظ .. يرفعه الى البطولة خلو الميدان . ويدفعه الى الزعامة غباء الأمة . وإنما كان من الصفوة المختارة الذين يضع الله فيهم الهداية للقطيع الذي يوشك أن يضل .. والحيوية للشعب الذي يأبى أن يموت ... »

« الزيات بك »

— ٣ —

انتقل مصطفى كمال إلى دمشق .. مبعدا عن القسطنطينية .. وكان السلطان يظن بذلك أنه لن يستطيع أن يواصل عمله ونشاطه .. وأن صلته بأقرانه قد انقطعت .. وأن جهوده قد توقفت — ولو إلى حين — !!

ولكن كيف تهدأ نفس « مصطفى » الثائرة ، وتخبو آماله العريضة ، وتسكن حركته المتدفقة !

لقد بدأ يواصل عمله ونشاطه في دمشق وبيروت .. واتصل « بعفيف لطفي » وهو أحد زملائه القدامى .. في المدرسة الحربية .. وأحد مؤسسي فروع الجمعية في بلاد الشام .. كما اتصل بقائد ميناء « يافا » .. وكان مناصرا لأعضاء الجمعية .. وظل مصطفى يطوف بمختلف بلاد الشام .. داعيا إلى إصلاح الإمبراطورية العثمانية — مركز الخلافة الإسلامية ولكن أهل هذه البلاد من العرب .. لم يحفلوا بدعوته .. وكان معظمهم ثائرين .. لا من أجل حرية تركيا .. ولكن من أجل حرية بلادهم .. ومنذ ذلك الحين بدأ مصطفى كمال ينظر إلى وطنه مستقلا عن بقية أجزاء الإمبراطورية .. ووضع أساس سياسته الذي سار عليه طول حياته « تركيا .. للأتراك »

وفي الوقت الذي أبعد فيه مصطفى كمال من القسطنطينية .. تكونت عدة جماعات وطنية منها « جمعية الاتحاد والترقي » التي كان هدفها الرئيسي وضع دستور للبلاد .. فلما سمحت له الظروف بالعودة إلى وطنه .. أراد أن يشترك في هذه الجمعية ولكنه لم يكن على وفاق مع زعمائها .. ولذلك فضل العمل بمفرده

وفي سنة ١٩٠٨ م .. قامت ثورة تركيا الفتاة .. التي انتهت بالحصول على الدستور ولم يكن لمصطفى نصيب في هذه الثورة

وحينما نشبت الحرب بين إيطاليا وطرابلس .. رأى أن يتطوع لمعاونة القوات الوطنية التي تحارب الغزاة الإيطاليين .. وقد استطاع الوصول إلى ميدان الحرب .. رغم معارضة الحكومة العثمانية .. وتضييق الرقابة الإنجليزية .. المسيطرة على مصر في ذلك الحين ... وظل يعمل في الميدان الجديد إلى أن نشبت الحرب البلقانية .. ضد تركيا سنة ١٩١٢ م

وحينما نشبت الحرب الكبرى .. انضمت تركيا إلى ألمانيا . فاشترك مصطفى كمال في هذه الحرب .. وقام بنصيب كبير في الدفاع عن بلاده حتى وصل إلى مرتبة الزعامة الحربية .. رغم معارضة وزراء الحربية له .. ووقوفهم في وجهه .. وإبعاده في كثير من الأوقات عن ميادين القتال .. وقد حاول الإنجليز مرتين اقتحام الدردنيل .. ولكنه استطاع أن يردهم المرة تلو المرة .. حتى تراجعوا في ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٥ .. ولذلك أطلق عليه اسم « منقذ الدردنيل »

وكان مصطفى كمال يحمل على الألمان حملة شعواء .. ويقول .. « إنه من الحمق والجنون أن نسمح للأجانب بالسيطرة على الجيش » وهو عدة الحياة لنا .. يجب علينا نحن الأتراك .. أن

وهي كالزنبقة البيضاء العاطرة في ملابس عرسها ، على غير أساس من الحب الصحيح المجرد عن معاني التراب

الحب هبة السماء إلى الأرض ، وصفو الحياة ونعيمها ، وهو هبة القلب إلى القلب ، ولا يستطيع الذهب والجوهر المنثور عليه في الدنيا

لقد ابتدأت الحياة بامرأة واستمرت بامرأة وستنتهي بامرأة حين تشاء القدرة أن يزول الوجود

علي محمد سرطاوي

نهض بجيشنا .. وإنهـا لإهانة للوطن كله أن ندعو ضابطا بروسيا ليتولى عنا تنظيم جيشنا .. »

وحينما انتهت الحرب .. خرجت تركيا مهزومة ذليـلة .. وكانت النكبة الكبرى على الدولة العثمانيـة احتلال اليونان لمنطقة أزمير — فقد كان ذلك يبعث فى نفوس الأتراك ألما وحسرة وقلقا .. ويدعو إلى التشاؤم .. والخوف من المستقبل

خرجت تركيا من الحرب مهزومة ذليلة .. فانتهز اليونانيون الفرصة .. وطلبوا من الحلفاء أن يسمحوا لهم باحتلال أزمير

وفى اليوم الخامس عشر من شهر إبريل سنة ١٩١٩ م .. بدأت الجيوش اليونانية تنزل أرض الأتراك — الذين كانوا بالأمس القريب سادة عليهم — وقد اقترن نزولهم فى هذا الميناء بالوحشية والقسوة .. فاعتدوا على الأهالى المسالمين .. وقتلوا عددا كبيرا من الجنود الأتراك .. وقد رأت الكاتبة الفرنسية مدام جوليس ما حدث عند نزول اليونانيين فى أزمير .. فتقول فى مذكراتها :

« بدأ اليونانيون ينزلون إلى البر .. وقد انتظموا صفوفا يتقدمهم علم يونانى كبير .. وازدحمت على جانبى الطريق الخالى من الأتراك . جموع من الأروام .. وقفت تهتف للقائد اليونانى الكبير — فنزيلوس — وكانت وجهة المحتلين والمتظاهرين .. الثكنة العسكرية التركية .. التى آوى إليها جنود الحامية التركية مع عدد عظيم من الضباط .. والشبان القادمين للاقتراع .. وكان جنود الحامية قد سلموا أسلحتهم تنفيذاً للأوامر .. وما هى إلا فترات قصيرة حتى أحاط الجيش المحتل بالبناء .. ثم دوت طلقة من أحد المتظاهرين كانت إيذانا بحركة فاجعة .. فقد صوب المحتلون مدافعهم .. فطارت مصاريع النوافذ الزجاجية .. وامتلأ الفناء بجثث القتلى والجرحى ..

وحاول الأتراك المحاصرون أن يدافعوا عن أنفسهم .. فأخذ أحدهم قطعة قماش رفعها .. وسار صائحا فى إخوانه .. كى يتبعوه ، ولكن نيران المدافع كانت أقوى من بسالتهم ، فمات منهم كثيرون »

يقول المؤرخ الإنجليزى الكبير هربرت فشر « قد يحتمل الأتراك احتلال أية دولة لأزمير ، أما أن تخفق الراية اليونانية الحقيرة المزدراة فوق أى صقع من أصقاع آسيا الصغرى ، فكان يعد من جانب كل تركى وطنى صميم إهانة لا تغتفر ولا تطاق ، ولذا أثار نزول الجيش اليونانى فى أزمير موجدة الترك ، وأهاج حفيظتهم ، وأذكى فى نفوسهم تصميما على مقاومتهم ، وأتاح لمصطفى كمال ، منقذ الدردنيل وأنبغ قواد الجيش التركى ، الفرصة لخلق دولة تركية مستقلة جديدة »

* * *

نظر مصطفى كمال إلى الحالة السيئة التى وصلت إليها بلاده .. فلقد أبعد الأتراك عن قناة السويس .. وطردوا من العراق وسوريا وفلسطين .. وأتى الأسطول الإنجليزى مراسيه فى مضيق الدردنيل .. وغدا السلطان دمية فى أيدى الساسة البريطانيين .. ولم يبق للأتراك سوى آسيا الصغرى التى احتل اليونانيون جزءاً منها .. وبدأ مواطنوه يخضعون للحكم الأجنبى ، ويفقدون الثقة فى حاضرهم ومستقبلهم .. ولا يفكرون فى وسائل الخلاص !!

ومع هذا الفساد فى الحكم .. والتشاؤم من المستقبل المظلم .. بدأ مصطفى كمال يفكر تفكيرا جديا فى تحرير وطنه .. وتخليص بلاده .. وبعث الشعور القومى من جديد

وكان برنامجه يقضى بالعمل على استقلال تركيا استقلالا كاملا .. ثم تنظيم الحياة القومية تنظيما مستمدا من أصول الحضارة الغربية

أخذ مصطفى كمال يبث الدعوة إلى فكرته ، ويجمع المخلصين حولها .. وكان مما حدث أن قابل السلطان — وحيد الدين — وحدثه عن آلامه .. وحاول أن يبث فيه الجرأة والصلابة .. ولكن السلطان خاف على مركزه ونفوذه .. وخشى أن يغضب الدول الكبرى .. ولذلك رفض مساعدة مصطفى كمال

وحينما شعر المراقبون الأجانب ، بهذه المساعى التى يبذلها ، والجهود التى يقوم بها .. خشوا أن يكون لحركاته أثر فى القسطنطينية عاصمة الدولة .. ومصدر توجيه الأمة .. ولذلك عملوا على محاربته « ومقاومة حركته » وذلك بإبعاده عن العاصمة ..

البقية فى العدد القادم

عبد الباسط محمد حسن

أبو العتاهية

للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى

تابع

انتهينا من بيان الأسباب الرئيسية التى أدت إلى ما حدث من انقلاب فى حياة شاعرنا سنة ثمانين ومائة للهجرة، وعرفنا أن أهمها هو شعوره بالضعة لما كان من وضاعة آبائه وأجداده، وما استتبع ذلك من حقد على ذوى الجاه والنفوذ فى عصره، وسخط على الحياة والأحياء عامة. وثانيها نقمته على هارون وبغضه له. وثالث تلك الأسباب هو تدخل الفضل بن الربيع وزبيدة وتشجيعهما للشاعر على الثورة ضد الخليفة

واليوم تبدأ المرحلة الثانية فى دراستنا وهى القيام بجولة فى شعره لنرى مدى انطباق ما قدمناه من نظريات على تلك الأشعار، ولنبدأ بما كان من شعر الشاعر خاصا بهارون. ولعل القارئ الكريم يتوقع مما ذكرناه آنفا أن يرى لأبى العتاهية فى هارون نوعين مختلفين من الشعر: شعر ينبعث من نفس مليئة حقدا على الخليفة لما كان من تثاقله فى أمر عتبة ثم ما كان من حبسه للشاعر فى غير جريرة اللهم إلا استماله لحقه الطبيعى من الامتناع عن الغزل. وشعر من نوع آخر لا ينفس به الشاعر عن نفس مغيظة أو عواطف مكبوتة، ولكن يحاول فيه أن يفى للفضل وزبيدة بما أخذه على نفسه من تسخير ملكته الشعرية لخدمتهما

وقد كان النوع الأول يتمثل فى تأليب الناس على الخليفة أملا فى تقويض ملكه وزوال سلطانه، ويتمثل أيضا فى تلك الأشعار الكثيرة التى كان يرجو فيها للخليفة موتا عاجلا يريحه ويريح منه، فمن ذلك تلك الأبيات التى أرسلها الشاعر إلى خزيمة بن خازم أحد قواد الرشيد الأكفاء والتى يقول فيها:

ألا إن تقوى الله أفضل نسبة ... تسامى بها عند الفخار كريم
إذا ما اجتنبت الناس إلا على التقى ... خرجت من الدنيا وأنت سليم
أراك امرأ ترجو من الله عفوه ... وأنت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر ... أيا من يداوى الناس وهو سقيم
وأذللت نفسى اليوم كيما أعزها ... غدا حيث يبقى العز لى ويدوم

والأبيات كما هى الآن مجردة من تعليق الرواة لا توحى بأن وراءها معنى خاصا، وما هى إلا كغيرها من القصائد الكثيرة التى يمر بها القارئ فى ديوان أبى العتاهية ويأخذها على أنها نوع من الوعظ لم تقصد به شخص بذاته ولا يهدف إلى غرض بعينه حتى أن جامع الديوان قدم لها بقوله (وقال فى تقوى الله وحسن منافعها وحميد عاقبتها) والآن انظر المناسبة التى قيلت فيها حتى تعرف بالتحديد قصد الشاعر بها: وإليك ما يرويه الأغانى فى بيان تلك المناسبة: (حدث حبيب بن عبد الرحمن عن بعض أصحابه قال: كنت فى مجلس خزيمة نجرى حديث ما يسفك من الدماء فقال: والله مالنا عند الله عذر ولا حجة إلا رجاء عفوه ومغفرته. ولولا عز السلطان وكراهة الذلة وأن أصير بعد الرياسة سوقة وتابعا بعد ما كنت متبوعا ما كان فى الأرض أزهد ولا أعبد منى. فإذا هو بالحاجب قد دخل عليه برقعة من أبى العتاهية مكتوب فيها الأبيات السالفة فغضب خزيمة وقال: والله ما المعروف عند هذا المعتوه الملحف من كنوز البر فيرغب فيه حر. فقيل له. وكيف ذاك؟ فقال: لأنه من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله)

يظهر أن خزيمة كان يجلس إلى نفر من الشيعة أو غيرهم من الطوائف التى كانت تنقم من هارون ميله لسفك الدماء، ويظهر أنهم لاموا خزيمة فى تعاونه مع هارون على ما يرتكبه الأخير من مظالم. والأبيات واضحة فى معناها وفيها يثبط الشاعر خزيمة عن مناصرة الرشيد ويذكره بآخرته ويبين له أن الفخر إنما هو فى التقوى والعز الحقيقى إنما هو عز الآخرة لا الدنيا

وإليك أبيات أخرى من قصيدة قالها الشاعر وهو فى سجن الخليفة وفيها يقول.

أما والله إن الظلم لؤم ... وما زال المسىء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم فى الحساب إذا التقينا ... غدا عند الإله من الملوم
سينقطع التروح عن أناس ... من الدنيا وتنقطع الهموم
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نئوم

تموت غداً وأنت قرير عين ... من الغفلات فى لجج تعوم

ومع أن القصيدة تسعة عشر بيتاً فنحن نعتقد أن الشاعر إنما أرسل منها إلى الرشيد الأبيات الأخيرة فقط واحتفظ بالباقى لنفسه، لا كما يذكر الرواة من أنه أرسل القصيدة بتمامها إلى هارون، ولو أنه فعل لاستوجب سفك دمه. والأبيات الأخيرة التى أرسلها تروى هكذا :

ألا يا أيها الملك المرجى ... عليه نواهض الدنيا تحوم

أقلنى زلة لم أجر منها ... إلى لوم وما مثلى ملوم

وخلصنى تخلص يوم بعث ... إذا للناس برزت الجحيم

وشبيه بذلك تلك الأبيات التى يقول فيها الشاعر :

أراك لست بوقاف ولا حذر ... كالحاطب الخابط الأعواد فى الغلس

أنى لك الصحو من سكر وأنت متى ... تصح من سكرة يغشاك فى نكس

ما بال دينك ترضى أن تدنسه ... الدنيا وثوبك مغسول من الدنس

ويروى أبو الفرج أن أبا العتاهية أنشد الرشيد بعض أبيات هذه القصيدة حين قال له الأخير : عظنى فقال الشاعر : أخافك فقال له أنت آمن فأنشد :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس ... إذا تسترت بالأبواب والحرس

واعلم بأن سهام الموت قاصدة ... لكل مدرع منها ومترس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

ووجه الشبه بين القصيدتين أن كلا منهما تحتوى على أبيات فيها اعتدال، ولذا أمكن إنشادها للرشيد وأخرى لم ينشدها الشاعر لما فيها من مظاهر الحقد والضغينة ولكنها فى الوقت نفسه تبين لنا رأى الشاعر فى الخليفة وعواطفه نحوه، وإننا لنرجح أن الشاعر قد قال فى هارون مقطوعات شعرية غير التى أسلفنا عبر فيها عن بغضه له وحقده عليه، ولكن الرواة لم يهتدوا إلى غرض الشاعر منها حيث أنها لم تقترن بما يميزها من ظروف وملابسات على نحو ما حدث فى الأمثلة السابقة، فنحن مثلا لا نشك فى أن أبا العتاهية كان يقصد الرشيد حين قال :

حتى متى تصبو ورأسك أشمط ... أحسبت أن الموت فى اسمك يغلط

أم لست تحسبه عليك مسلطا ... ويلى وربك إنه لمسلط

ولقد رأيت الموت يفرس تارة ... جثث الملوك وتارة يتخبط

إلى آخر ما قاله فى تلك المقطوعة، وإنما ذهبنا هذا المذهب لأن هارون الرشيد كان إذ ذاك الشخص الوحيد الذى له من السلطان والسطوة ما يمكن معه أن يشك فى تسلط الموت عليه إن حق لشخص ما أن يشك فى تلك القضية، كما أن ذكر الملوك فى البيت الثالث يرجح أنه كان يعنى بما يقول واحداً منهم، على أن الشاعر يبدى لنا رأيه فى الرشيد بصراحة وذلك فى أبيات يبدؤها بقوله :

إن الملوك بلاء حيثما حلوا ... فلا يكن لك فى عيش لهم ظل

ومما يحمل على الاعتقاد بأن أبا العتاهية إنما كان يعنى بما يقول هارون ما أخذه الشاعر على الملوك من الملل حين يتحدث إليهم متحدث، واتهامهم الناصح بالغش وذلك يمثل حال الشاعر مع الرشيد بالذات، لأنه الخليفة الوحيد الذى كانت علاقته بالشاعر تسمح بمجالسة أحدهما للآخر؛ ومن ثم تمعطى فرصة لحديث معاد مملول أو نصيحة غير مقبولة

والآن وقد وقف القارئ الكريم على طبيعة ما كان بين أبى العتاهية والرشيد من علاقة يسرنا أن نشركه معنا فى تدبر القصة التالية : يروى أبو الفرج أن رسول ملك الروم قدم إلى الرشيد فسأل عن أبى العتاهية وأنشد شيئاً من شعره، وكان يحسن العربية، فمضى إلى ملك الروم وذكره له فكتب ملك الروم إليه ورد رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبى العتاهية ويأخذ فيه رهائن من أراد، وألح فى ذلك، فكلم الرشيد أبا العتاهية فى أمر سفره فأباه، واتصل بالرشيد أن ملك الروم أمر أن يكتب بيتان من شعر أبى العتاهية على أبواب مجالسه وباب مدينته وهما :

ما اختلف الليل والنهار ولا ... دارت نجوم السماء فى الفلك

إلا لنقل السلطان من ملك ... قد انقضى ملكه إلى ملك

ألا توافقنا على أن فى هذه القصة شيئاً من الغرابة ؟ فإذا صح أن سفير الروم كان يعرف العربية وكان لذلك يتذوق شعر

أبي العتاهية فا بال ملك الروم يتطلع إلى سماع شعر أبي العتاهية هو الآخر؟ فهل كان يعرف العربية أيضا؟

ومهما يكن من شئ فنحن نشك في أنه كان متحمسا لشعر أبي العتاهية تحمسا يدعوه إلى أن يلح في طلبه ذلك الإلحاح، وأكبر ظني أنه كان يريد استغلال الشاعر استغلالا سياسيا على نحو ما تفعل الدول اليوم من اجتذاب أحد أبناء الشعوب المشتبكة في حرب معها إليها، وتسخيره للدعاية ضد الحكومة القائمة في وطنه. فما من شك في أن جواسيس كثيرة كانت تعمل إذ ذاك لصالح الروم وكانت تتخذ من بغداد مركزا لنشاطها، وما من شك في أن الروم كانوا على علم تام بأساليب تلك الدعاية وآثارها، ألا ترى أنهم استغلوا رجلا آخر قبل أبي العتاهية وهو يونس بن أبي فروة الذي كتب لهم كتابا فيما أخذه على الإسلام من معايب بزعمه. فما الذي يمنعهم حين علموا ما علموا عن بغض أبي العتاهية للرشيد من استقدامه إليهم وإعطائه فرصة كاملة لتسجيل ما كان يأخذه على الرشيد من ميل إلى اللهو وعكوف على اللذات واستهتار بالدين. وليس هناك أدنى شك فيما كان يمكن أن تحدثه تلك الأشعار من أثر سيء في روح جيش الرشيد المعنوية، فقد كان كثير من أولئك الجنود يذهبون إلى حرب الروم والحماسة الدينية تملأ صدورهم لما يعتقدونه من عدالة القضية التي يدافعون عنها، ولكن حين يتضح لهم أن خليفة المسلمين وحامي حمى الإسلام وقائد تلك الحملات ماهو إلا رجل خليع مستهتر وليس له من مظاهر الدين إلا احتراف الحروب ضد الروم فستخبو حماستهم وتضعف عزائمهم وتتفرق كلمتهم. ونحن لا نستبعد أن يكون ملك الروم إنما أعجب بالبيتين اللذين ذكرا فيما سبق لما يبشران به من موت الرشيد، ذلك الخصم العنيد الذي فشلت جيوش الروم في صد غاراته أو وقف حملاته. هذا ويذهب البروفيسور[1] جيوم إلى أن ما أورده الأغاني خاصا بما كان بين ملك الروم وأبي العتاهية من مكاتبات وما كان من أعجاب الأول بشعر الأخير ليس إلا محض اختلاق أراد به مختلقه أن يبرهن على أنه كان من بين ملوك المسيحيين من هو أشد حرصا على سماع الموعظة الحسنة من ملوك الإسلام

وإنا إذ نترك الكلمة الأخيرة في تلك المسألة إلى القارئ الكريم يسرنا أن نعود معه إلى تلك القصائد والمقطوعات التي كان الشاعر يهدف فيها إلى تنفير الرشيد من اللهو والعبث وفاء بما قطعه على نفسه للفضل وزبيدة من عهود. وأول ما يلاحظه الباحث على تلك المقطوعات هو كثرتها وتنوعها، وقد أدى إلى كثرتها وتنوعها على تلك الصورة ما كان من ميل الشاعر الطبيعي إلى ذلك النوع من الشعر الوعظي، فقد كان ذلك اللون من الشعر يستهوى العامة فيجمعهم حول الشاعر ويزيد في حبهم واحترامهم له، وفي ذلك تعويض لما يحسه من ضعة نتيجة لضعة آبائه وأجداده

وقد كانت طريقة الشاعر في وعظ الرشيد تختلف من وقت لآخر تبعا للمناسبات، فهو حينا ينهاه عن اللهو نهيا مباشرا وحينا يذكره بما أصابه من شيب وأحيانا يبصره بما لا بد أنه ملاقيه من موت. وهكذا نعتقد أن الشاعر كان يخاطب الرشيد بكثير من المقطوعات التي تنهى عن اللهو واللعب كتلك التي تبدأ:

أتلهو وأيامنـــا تذهب ... ونلعب والموت لا يلعب

* * *

أسلك بنى مناهج السادات ... وتخلقن بأشرف العادات

على أنه إذا كان هينا لينا في المقطوعتين السابقتين فقد يصل أحيانا إلى حد الإزعاج كما في قوله:

أيا من بين باطيـــة ودن ... وعود في يدى غاو مغن
إذا لم تنه نفسك عن هواها ... وتحسن صونها فإليك عنى
فإن اللهو والملهى جنون ... ولست من الجنون وليس منى
وأى قبيح أقبح من لبيب ... يرى متطرباً في مثل سنى
إذا مالم يتب كهل لشيب ... فليس بتائب ما عاش عنى

ولعلنا لا نكون قد ذهبنا بعيدا إذا ادعينا أن بعض تلك

(١) الأستاذ بجامعة لندن وأستاذ كاتب هذا المقال

للمقطوعات كان ينشد بصورة جمعية ، ومن يدرى لعل زبيدة كان لديها من الجوارى من يقوم بإنشاد تلك الأشعار فى جانب من جوانب قصر الخلافة لترد بذلك على ما كان ينشد فى الجانب الآخر من أناشيد الحب والغزل ، ألا توحى موسيقى المقطوعتين التاليتين أنهما إنما أنشئتا لذلك الغرض

أنظر لنفسك يا شقى حتى متى لا تتقى
أو ما ترى الأيام تختلس النفوس وتنتقى

* * *

خير الرجال رفيقها ونصيحها وشفيقها
والخير موعده الجنا ن وظلها ورحيقها
والشر موعده لظى وزفيرها وشهيقها

وليس ذلك بغريب على زبيدة ، ألا ترى أنها عهدت إلى مائة من جواريها بقراءة القرآن فى قصرها ليلا ونهارا ، وما نظن أن ذلك العمل كان خالصا لوجه الله تعالى وإنما كان للغرض الذى أشرنا إليه فى السطور السابقة

وقد اعتمد الشاعر فى تنفيره من الملاهى والملذات على مخالفتها للدين ومجافاتها للآداب العامة، وكان ينظر إليها فى بعض الأوقات نظرته إلى ضرب من ضروب الجنون الذى لا يليق بالعقلاء من أمثاله ! فكيف بخليفة رسول الله وابن عمه وولى أمر المسلمين من بعده . وأخيرا ينهى عنها لما تعقبه من حسرات أو تصيب به الجسم من فساد وتحطيم

أما شيب الرشيد المبكر فقد أعطى الشاعر فرصة كاملة لوعظه والإلحاح عليه فى ذلك إلحاحا مملا . فاللهو فى رأيه من شأن الشباب ؛ أما الشيوخ فالوقار والتدين أولى بهم ، ألم يجعل القرآن سن الأربعين الحد الفاصل بين حياة اللهو وحياة الجد إذ يقول « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه » ولم لا والشيب نذير الموت بل هو الموت بعينه :

الشيب إحدى الميتتين تقدمت إحداهما وتأخرت إحداهما

ويزعم الشاعر أن المرء لا يشعر باللذات فى شيخوخته كما كان يشعر بها فى شبابه، ففيم إذن يرتكب الآثام وينتهك الآداب؛

وإذا كبرت فهل لنفسك لذة ما للكبير بلذة متمتع

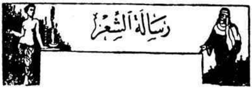
ونحن لا نشك فيما كان يصيب هارون من ضيق وارتباك عند سماع تلك الأشعار ؛ ألا ترى مافعله بأحد المغنين حين غناه :

وأرى الغوانى لا يواصلن امرأ فقد الشباب وقد يصلن الأمردا

وقد أمر الخليفة به فسحب على وجهه وأخرج من المجلس وقال له : يا ابن الفاعلة أتعرض بى فى غنائك ؟

وإنا إذ نختتم هذا المقال لنرجو أن نعود إلى استئناف الكتابة فى هذا البحث بعد أسابيع قلائل إن شاء الله تعالى

محمد عبد العزيز الكفراوى



موكب العيد ...

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصري

يا حبيبي أقبل العيد وضيء القسمات
وتجلى مشرق الطلعة حلو البسمات
كسماء تتلالا بالنجوم النيرات
أو كزهر ماج بالأشذاء فوق الربوات
فاستفق يا ناعس الطرف ويا حلو التثني
ومع الأطيار فوق الدوح هيا لنغني

* * *

يا حبيبي أي عيد طاف بالزوراء ضاح
عاطر الأنفاس كالبهجة منشور الجناح
أهو «الفطر» وذى ضجة أعراس الملاح
أم ترى موكب «آذار» تهادى في البطاح
هاتفاً بالفرحة الكبرى وبا للحن الرن
صادحاً في كل قلب، هازجاً في كل أذن

* * *

يا «هنائي» أنت لي عيد مع العيد سعيد
حبك الملهم لي فجر على شعري جديد
أنت هذا الوتر الشادي بقلبي والنشيد
أنت هذا النغم المسحور والنور الوليد
أنت أنغامي وأحلامي وأقداحي ودني
أنت عطر عبق الشعر به بل كل فن

يا «هنائي» سئم الليل اصطباري واشتياقي
كم شربت السهد والشوق معي مر المذاق
ونديمي القمر الولهان، والسلوان ساق
أعلاك على البعد، فأهفو للتلاقي
وأغني يا منى نفسي ما هذا التجني ؟!
أو ما يكفيك تسهيدي وتشريدي وسجني

* * *

أو ما تكفيك آمالي على كفيك تطوى ؟
أو ما تشجيك أحلامي على النار تلوى ؟
أو يرضيك وأزهاري على الأشواك تذوى ؟
صرت من حبك مأساة على الأيام تروى
رددت أصداءها الأطيار من غصن لغصن
وإذا بي دمعة مخنوقة في كل جفن

* * *

غني يا «دجلة» أنغام الصبايا الفرحات
وانثري الفتنة في الوادي، وفوق الربوات
شاركي «بغداد» بالأنس، وهاتي النغمات
نحن في عيد تحلى بالأماني النضرات
وتجلى فوق «بغداد» وضيئاً كالتمني
كيف لا يطرب سمع الكون من سحر التغني

* * *

هو عيد عم دنيا الشرق، والشرق وضيء
فتجلى فيه نور من هداه قدسي
وهو عيد مثل أنغامي وأوتاري شجي
عيد عز كم تمناه إلى الشرق الأبي
وكم اشتاقت إلى ضاحي سناه كل عين
فمضى يغمر وجه الشرق منه ومض حسن

عبد القادر رشيد الناصري

الكتب

أسس الاصلاح العالمي

تأليف الأستاذ محمد عبد الغني

للاستاذ منصور جاب الله

منذ أربعين عاماً أو تزيد ، والأستاذ محمد عبد الغنى يعمل مناضلاً لنشر الدعوة الإسلامية على حقيقتها داعيا إلى الأخذ بتعاليم الإسلام فى كل شأن من شؤون الحياة ، مستصرخا الحكام وولاة الأمر أن يهبوا للاصلاح على أسس قويمة من الدين الحنيف والشريعة السمحة

وعلم الله أننا ما بصرنا بالأستاذ محمد عبد الغنى متوانيا ولا متخاذلا فى نشر رسالته رغم المعوقات والخذلات التى وضعت فى طريقه ، فهو على الدوام يخطب فى المساجد والجوامع ، أو يراسل أولى الشأن فى المهم من الأمور ، أو يحبر المقالات المطولة وينشرها فى الصحف ، أو يؤلف الكتب حسبة لوجه الله لا يبغى كسبا ماديا ولا ربحا ماليا

ولقد قدمت لقراء « الرسالة » بعض مؤلفات الأستاذ محمد عبد الغنى قبل سنوات ، وأبرزت النهج الفريد الذى اختطه المؤلف لنفسه ، ولمحت إلى جرأته الشديدة فى عرض وجهة نظره غير مبال بما قد يلحقه من أذى الحكام أو أوصاب الحياة

واليوم يقدم لنا الأستاذ المجاهد أحدث مؤلفاته مختاراً له هذا العنوان « أسس الإصلاح العالمى على ضوء الهدى الإسلامى » ومن خلال العنوان يدرك القارئ الغرض السامى الذى يستهدفه مؤلفنا الفاضل ، ولندع المؤلف يتحدث فى مقدمته حيث يقول : « أى إنسان ينظر إلى الإنسانية لا بالمنظار المركزى ولا بالمنظار الجنسي والمذهبي ، بل بالمنظار العالمي الإنساني ، يضع أمامه ذلك الاعتبار الذى وضعه الاسلام ، اعتبار أن العالم كله على اختلاف ملله وأجناسه وأنواعه ، وعلى تنائى دياره وأقطاره ، يتصل بتلك الصلة الأولية العظيمة ، صلة الأبوة والأمومة الأوليين ، والذى يقدر تلك الوشائج الرحمية لا ينظر لأى أمة بالمنظار الأسود ، منظار التحيز المقوت ، والتعصب الجنسى والوطنى والإقليمي المرذول ، بل ينظر إليها كأنها أمة شقيقة لأمته ، وكأن أفرادها إخوة له فى الإنسانية وفى الفضائل والكمالات البشرية ، وإذا تسامى عن التحيز والهوى تحاشى أن يندفع الاضرار بفرد مهما تكن تبعيته وملته وجنسيته ووطنيته ، وإنه إن غفل عن تقدير هذا الشعور وتحامل على من يخالفه فى الاعتبارات الشخصية والمركزية فقد تجرد من القيم الروحية ، تجرد عن الروح الإنسانية وانحدر إلى التعصب وإلى حضيض الوحشية »

بهذه الفكرة المتسامية بدأ المؤلف رسالته ، ثم تحدث عن شقوة هذا العالم الذى نعيش فيه وأورد بيانات إحصائية عن القتلى والجرحى والمنكوبين فى الحربين العالميتين الماضيتين ، وفى الحروب التى وقعت بينهما والتى تلتهما ، واستطرد من خلال ذلك إلى أن ساسة العالم لو قد فاءوا إلى مثل روحية عليا لجنبوا الإنسانية كل هذه الموبقات

ثم تحدث المؤلف عن حرب الموبقات والشهوات وما ينفقه كل شعب على شهواته المتلفة كالخمر والمخدر وما إلى ذلك ، ثم عطف من ذلك الحديث إلى الحديث عن عظمة الإسلام وشهادة العلماء الأعلام من غير المسلمين بروحانية هذا الدين الحنيف ، وكيف أنه الحصن اللاذ الذى يمكن أن يقى الناس جميعا من التردى فى مهاوى التهلكة

ثم تدرج من ذلك إلى تبيان أنواع العبادات فى الإسلام وبسطها بسطا فلسفيا يدعو إلى الإعجاب ، ووازن بينها وبين العبادات فى الأديان الأخرى ، وخلص من ذلك إلى أن الإسلام

جماع الأديان كلها ، انتظم فضائلها وجمع أشتاتها ، فانصبت فيه الخلاصات الروحية بحسبه آخر الرسالات السماوية

وبعدئذ أنشأ المؤلف يسرد الأدواء التي حاقت بالإنسانية ويصف لكل داء ما يكفل شفاءه من آيات كتاب الله ، ولقد أوفى الأستاذ عبد الغني من ذلك على الغاية حتى أنه استعان بكل ما في القرآن الكريم من الآيات البينات ، وبدت تلك الكلمات القدسية كالوشى الصقيل على صفحة الخريدة الحسناء

وأنحى المؤلف إنحاء شديداً على المدنية الغربية التي فرقت الناس شيعاً ، ونشرت روح التعصب الديني والطائفي ، ودعت إلى فض الخلافات بالقوة المسلحة ، فأوغرت الصدور ، وأرثت الحزازات ، وإذا العالم يسير في طريق الفناء والدمار

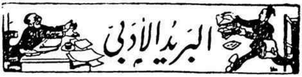
وعرج الكتاب بعد ذلك على مواقف السلف الصالح من أبناء الإسلام في تقويم المعوج ، ونشر الإصلاح والنصح للخلفاء والعمال

وختم المؤلف كتابه بمقترحات توجه بها إلى ولاة الأمور ، وأخص هذه المقترحات المطالبة بالرجوع إلى التشريع الإسلامي « فلو وفقنا للرجوع إلى الإسلام فقد وفقنا لإنقاذ الأمة مما تعانيه من الخطوب والكروب والويلات التي تستهدف منها لسخط الله وانصباب صواعق النقم على رءوسنا » إلى آخر ما قال الكاتب بجرأته التي تسترعي الانتباه

وفي مقدمة المقترحات التي عني بها صاحب « أسس الإصلاح » تأليف وزارة للشؤون الإسلامية تكون لها الولاية على إقامة الشعائر الدينية فتعاقب المسلم الذي يتوانى في أداء الفرائض من صلاة وزكاة وحج إن استطاع إليه سبيلا ، وكذا تتولى القضاء على هذه البوائق التي ارتكس فيها المسلمون مندفعين وراء تيار المدنية الكاذبة ، ويقوم على رأس هذه الوزارة — وزارة الشؤون الإسلامية — وزير يلقب بشيخ الإسلام — وهو غير شيخ الأزهر — « تكون له الهيمنة على شيوخ المعاهد وله السيطرة في الوزارة الإسلامية وعلى سائر الوزارات والهيئات فيما يتصل بالشؤون الدينية وتكون تحت إدارته قوة عسكرية لتنفيذ الأوامر الدينية » وبعد ذلك « يعين مجلس إسلامي أعلى تحت رياسة شيخ الإسلام لإعداد المؤلفات الدينية للرد على الطاعنين في الاسلام وعلى الطوائف الخارجة عنه » ثم اقترح « عقد مؤتمر إسلامي كل عام ينهض بالمسلمين » كما يرى حضرته « توسيع اختصاص المحاكم الشرعية على مثل الحكم الاسلامي في فجر الاسلام »

وبعد ، فإن الأستاذ عبد الغني مستحق ولا شك كل إعجاب لهذا المجهود الذي بذل ، وهذه الشجاعة الأدبية التي لم تتخل عنه في كل أطوار حياته ، جزاه الله عن الاسلام والمسلمين

منصور جاب الله



بين أستاذين

جاءنا من الأستاذ كامل السيد شاهين رد على رد الأستاذ أحمد الشرباصي لا تلائم لهجته طبيعة الصداقة والزمالة بين الأستاذين الفاضلين، فرأينا أن نطويه معتذرين، ابقاء على المودة واكتفاء بما نشر

دعابة الى الأستاذ علي الطنطاوي

— ما يمنعك يا سيدي من أن ترحل على بعير، أو تقيم في خباء ... ما دمت تود مناجاة الرمال، ومرافقة الوحشة ثلاثة أشهر تنفقهـا في سخاء بين « دمشق » و « بغداد » فما الذي يقف حجاز بينك وبين ما تريد ؟

لقد طوت المدنية الحديثة الأبعاد الفسيحة، كما تطوى اليد الكبيرة السفر الصغير، حتى جمعت العالم حول مائدة، وإذا كانت الدنيا اليوم بين فكي صداع، تلوكها أنياب التهديد والوعيد، فإن البشر لعلى أمل كبير في انتصار السلام، مادامت دعوات « العالمية » تلقى النصير في « المواطن العالمي » ويذهب المؤمنون بالإنسان من المتفائلين — وهي خصلة نبوية، إلى أن زمانا ستبزغ شمسه، فيه تموت لغة الإقليم، وتحيا لغة « الإنسان » ولكنك - ياسيدي - تبغي رجعة إلى عهد طفل، تقطع رحلته بين بلدين متجاورين في شتاء أو صيف، وتتكلم فيه القبيلة بلغة، بينما تتحدث أختها في أرضها، وتحت شمسها، وعلى بعد يسير جدا، بلغة أخرى، وعندنا مثل شعبي يقول « البعد جفاء » ولا شك أن زمنا يقاس فيه الوقت بالصوت والنور ؛ خير من زمن يرخص الوقت فيه حتى يقاس بالمبهم كالحين والدهر

إن ما يدعو إلى العجب فيكم يا معشر الواعظين أن يقف الواحد منكم يشمره وهج « الكهرباء » وينشر كله على الناس « الميكرفون » ثم لا يعلو صوته إلا بصب اللعنات فوق رأس الحضارة الناهضة، كأن الحضارة كثيب من ذر لا يلبث أن يطير من نفخ الهواء ؛ أو كأن حكم العاطفة المرتجلة، والشعور للتقلب، أفضل من سيادة العقل، وتجربة « المعمل »

بني سويف — برکات

في جوار الله تلميذ من تلاميذ الرسالة

نشأ الوجيه علي مصطفى الزارع من أثرياء طما محبا للعلم والأدب، جعل من داره ندوة يسعى اليها كل شيخ وقور، وشاب مثقف، وطالب يحث في الأدب أو فقه في الدين، وكان أكثر الساعين إلى ندوته الموظفون الغرباء، فيجدون في رحابها كرما وجودا، وفي مكتبتها ثقافة وأدباء وفي جلستها مرحا مهذبا يخفف عنهم لوعة الغربة وجفوة البعد

وكان (للرسالة) الغراء لدى الوجيه الأديب مكانة محفوظة، وفي مكتبته الضخمة ركن ملحوظ، ولا أظن أن عددا واحدا من الرسالة ظهر دون أن يشتريه ويستوعبه حرفيا، ويناقش موضوعاته في ندوته، كما لا أظن أن كتابا واحدا ظهر لصاحب الرسالة دون أن يقتنيه مزينا به صدر مكتبته زاهيا بشراه إلى رواد ندوته — كان مشغوفا بالصحف على اختلاف ألوانها ومشاربها ومعنيا بها، ولكن شغفه بالرسالة وعنايته بها كانا يحملانه على الخروج من داره في يوم ظهورها ليستقبلها في نهاية الشارع أو في ميدان المحطة وقت مجيء القطار

ومنذ أيام قرأت في الصحف نبأ انتقاله إلى جوار الله فرثيته إلى نفسي ونعيته إلى قلبي، فقد كان نعم الصديق الذي لا يعرف غير صفاء العشرة، ونقاء الألفة، ووفاء الأخوة، وكرم الصحبة، ورثيت لحال أسر نكبها الدهر وتنكرت لها الحياة، كان لها مأوى، ولنوائبها ملجأ، ولآلامها مسكنا، ولهمومها مجففا

ولم يمض يوم واحد على نعيه في الصحف حتى تكشفت وفاته عن مأساة يرتجف لها القلم ألما، ويعتصر القلب دما، فقد ظهر أن الوفاة لم تكن طبيعية، وإنما كانت نتيجة اعتداء وحشي على الأديب الفقيد من أيد أثيمة لوثت بالجبن والنذالة، انتهزت فرصة عزلته وأنهت حياته متحدية غضب السماء وسطوة القضاء، غير آبهة بما ستخلفه المأساة من فجيعة في الأسر المنكوبة التي كان يعطف عليها، وفي الأصدقاء الذين كان يوفي إليهم حقوق الصداقة والأخوة، لقد تناقلت الصحف أن القتلة هم إخوته

طمعاً في الميراث الزائل لأن الفقيد لم يكتب عليه أن يؤذى إنساناً أو يسىء إلى أحد ، كان يحب الخير للجميع ، ويبذل الخير ما وسعه البذل للجميع ، وكان انساناً بكل ما في هذه اللفظة من معنى ، وما أعلم أن قلبا واحدا كان يضمر له ذرة من الكراهية لأن خلقه جعله جديرا بحب القلوب قاطبة ، وكان أديبا شهماً وكريما حقا ، ولكن هذه الصفات كلها لم ترحه من عدوان الأيدى الأثيمة النذلة ... !

لقد ذهب صديق الرسالة أو فقيدها إلى جوار ربه وهو أكثر ما يكون رضا من ربه ، وبقيت الأيدى الأثيمة تنتظر في الدنيا سخط الرأى العام ونكال العدالة ... وفى الآخرة لعنة السماء ... !

محمد عبد الله السمان

كن جميلا :

قرأت بإعجاب مقال الأستاذ أحمد مصطفى حافظ بالعدد ٩٧٨ من الرسالة الغراء ولكنى فيما أعتقد لى مندوحة عن التسليم بكل ما عرضه الأستاذ على بساط البحث من آراء ...

فلقد استدل الأستاذ على أصالة الشاعرية وطبيعة الانفعال الفنى بأبيات من الشعر الكئيب الحزين .. وإنى لأفهم من هذا مشاركة الأستاذ — وجدانيا على الأقل — لهذا اللون من الأدب . . ومن رأينا أن رسالة الفن ليست الكآبة واليأس .. وأن جمال الكون وبهاء الوجود ليسا من الهوان على الشاعر الفنان الحق حتى يدعهما إلى الأفكار السوداء المتشائمة ... وأن العقاد الفيلسوف ليقول : (... ما زلت أعتقد وأزداد مع الأيام اعتقاداً أن بغض الحياة أسهل من حب الحياة ، وأن الأدوات النفسية التى نلمس بها آلام الحياة أعم وأشيع وأقرب غورا من أدوات النفس التى نلمس بها أفراح الحياة العليا ومحاسنها الكبرى ، فالفرح أعمق من الحزن فى رأيى ولا مراء ! وليس الحزن قدرة بل هو انهزام أمام قدرة ... أما الفرح فهو القدرة والانتصار ...) فنحن لا نستحسن — مثلا — قول (الأديب المسترسل) حين يقف بين أحضان الطبيعة البهيجة : (إنى أرى الجبال هموما ثقيلة جاثمة فوق صدر الأرض .. بل نميل من مثل هذا الأديب لنسمع من الآخر قوله :

الزهر حيانا بثغر باسم والنهر قابلنا بقلب صافى

ثم نسمع من الزهاوى قوله :

الناس تحيا بالمنى فما لها عنها غنى
لولا المنى ما عشت أنت سالما ولا أنا
لا تدلهم أنفس لها من المنى سنا
ولا يرى ذو اليأس ما أمامه وإن رنا
اليأس نار تحرق الروح وتفنى البدنا
ويجعل العمر قصيرا ويطيل الشجنا
أمل حياة كلها طيب هناك أو هنا

أسمعت يا أستاذ أحمد :

أمل حياة كلها طيب هناك أو هنا

حاول أن تتدبر جيدا يا أخى مغزى هذا البيت ...

ثم انزل معى قول إيليا أبو ماضى :

أيها الشاكى وما بك داء كن جميلا تر الوجود جميلا

... وبعد فهذا هو الشعر الحى الممتلىء الأعطاف فى الحقيقة ، الذى لا يتجاوز حاجة القسام الأسى ... وقد كان الأخلق بسيادتك أن تستدل به ، وبمثله ؛ وأخيرا هذه كلمة لوجه الحقيقة المجردة ... والله !

حسين كامل عزمى

جواز قراءة الأعداد المركبة من الشمال إلى اليمين :

أحال مجلس مجمع فؤاد الأول إلى لجنة الأصول ما طلبه حضرة العضو المحترم الأستاذ أحمد حسن الزيات بك من قراءة الأعداد المركبة مع المائة فصاعدا من الشمال إلى اليمين أسوة بقراءتها من اليمين إلى اليسار ، وما أثير حول هذا الموضوع من نقاش فى المجلس

وقد رجعت اللجنة إلى كتب النحو للوقوف على ما كتبه النحاة فى هذا الموضوع ، فوجدت فى شرح الكافية لنجم الأئمة محمد بن حسن الرضى المتوفى سنة ٦٨٤ ؟ أو سنة ٦٨٦ النص الآتى :



القـــاضى السعيد

للفيلسوف الروسى تولستوى

نام المليك ثملا من الرقص الفاتن على أنغام المزامير يرنو إلى جمال الراقصات الباسم ... ويصغى إلى أحاديث الندامى ترن فى مسامعه صرجعة انباء السـاحر الرهيب ، ذى القوة الخـارقة والسحر العجيب ، وأقاصيص ذلك القـاضى السعيد الفياضة بالغرائب ، المملوءة بالأعاجيب !

وأيقظه نسيم السحر المرتعش ، فنادى غلامه وقال : سمعت فى العشية من صحبتك أن فى أقصى المملكة قاضياً واسع الحيلة ، عظيم الذكاء ، يعرف الكاذب إذا رآه من الصادق ، وله فى ذلك نكات حلوة وطرائف طلية ... ولقـد هفت نفسى إلى رؤيته فهيئ لى يا غلام جوادى ، وأحضر لى زادى ، وائت لى بلباس لا يعرفنى به أحد من رعيتى ، كى أذهب فأرى صدقه من تدجيله

وبعد ساعة .. انطلق الملك يسرى .. بين شعف الجبال وأحضانها ، وهو يحث السير ويغذه ؛ حتى إذا ماوصل إلى بلد القاضى — وقد ارتفعت الشمس وقاظ النهار — لقيه رجل قد قطعت ساقاه وتهشم وجهه وجحظت عيناه ؛ فاقترب منه ، وهو يتكئ على عصوين أسـندهما إلى إبطيه .. وأخذ يقبل أقـدامه ويطلب إحسـانه . فتصدق الملك عليه ؛ وهمز حصانه وسـار على مهل

وفرح البائس إذ ضحكت له المنى ولكنه لحق بالمليك وأمسك بأثوابه لا يدعها ، فغضب الملك وثار وقال له :

— ما شأنك أيها الرجل ، وماذا تريد ؟ طلبت فأعطيناك . وشكوت فرحمناك ..!

قال الرجل بصوت يشيع فيه الحزن واللوعة :

أوصلنى يا سيدى إلى ساحة المدينة ، فأنا بائس عاجز وأخاف أن تطأنى الجمال بأقدامها إذ تمشى مشيها الوئيد .. أوصلنى إليها يا سيدى والله يجزيك أحسن الجزاء

ورق قلب الملك له وأشفق عليه . فحمله بين يديه وأردفه . ثم انطلقا حتى أتيا ساحة المدينة الكبرى . قال الملك آنذاك :

— ها هى ذى ساحة المدينة أيها الرجل ، فاهبط آمنا !

قال الرجل :

— وى ! هذا حصانى فلم تريد اغتصابه منى ؟ أهذا جزاء من يعطف عليك ويشفق ؟ ياللوقاحة ! ويل لك من العذاب الذى سيصيبك ! هيا . هيا . دع الحصان وامض إلى سبيلك . وإن لم تفعل فخير لك ولى أن نذهب إلى القاضى السعيـــد فنسأله ، وهناك يظهر الحق ويزهق الباطل !

وشده الملك وعجب من هذا المحتال البائس . ثم ثار وغضب ، وأرغى وأزبد ، والتف حوله أهل المدينة ، فساقوهما إلى القاضى ليحكم بينهما

وأتيا القاضى يجران وراءهما الناس ، وقد جاءوا ليتسمعوا

« ... وتعطف المائة على ذلك العدد نحو أحد ومائة ، واثنان ومائة ، وثلاثة ومائة — أو تعطفه على المائة نحو : مائة وأحـد . مائتان وأحد ، ألف واثنان ، فى المعلوم معدوده وفى غير المعلوم مائة ورجل ، ألف ورجلان ، مائة وثلاثة رجال

والأول أى عطف الأكثر على الأقل أكثر استعمالا . ألا ترى أن العشرة المركبة مع النيف معطوفة عليه فى التقدير ، فثلاثة عشر فى تقدير ثلاثة وعشرة وكذا ثلاثة وعشرون أكثر من عشرين وثلاثة الخ ... »

ومن الأمثلة التى ذكرها صاحب التصريح عند كلامه على العدد قوله : « كانوا تسمائة وتسمين وتسما فأتاهم . »

وقد انتهت اللجنة إلى جواز الأمرين على السواء . وأقرها مجلس المجمع على ما رأت

إلى حكمه . واستوى القاضي على كرسي مزين بالذهب المتوهج ، وبدأ ينادي المتخاصمين فرداً فرداً

وجيء بعالم أصلع الرأس ، كث اللحية ، حاري الأذنين (١) وإلى جانبه قروي رث الهيئة ، ممزق الأثواب ، على وجهه أمارات الغباوة ، كانا يختصمان على امرأة حسناء على وجهها سحر وطلاوة ... هذا يدعي أنها خليلته ، وذاك يقول إنها حليلته . .

واستغرق القاضي في صمت عميق ... ثم قال :

— دعا حسناءكما عندي وتماليا إلى غدا

وتقدم جزار إلى جانب بدال . وكان الجزار يرتدي ثوبا مليئا دماً ، وكان البدال يرتدي لباساً زين ببقع الزيت الجيدة .

قال الجزار :

— لقد اشتريت من هذا الرجل يامولاي زيتاً ثم عمدت إلى قميصي فأخبأته تحت جيبه (٢) . ولكنه هجم علي ، وانتزعه مني ، فجئنا إليك يامولاي ، أنا أمسك بيدي دراهمي وهو يمسك بتلابيبي لئلا أفر ، ولكن الدراهم لي ، وما هو إلا سارق أثيم !

قال البدال

— كذب ما قاله يا سيدي وبهتان .. لقد جاء إلي ليبتاع من زيتي ، فملأت له وعاءه ، فلما أراد الانصراف طلب مني أن أبدل له قطعة ذهبية بقطع فضية ، فرحت أعطيه الدراهم ... ولكنه فر بها يا مولاي ، فلحقت به .. وأحضرته إليك ..

واستغرق القاضي في صمت عميق . ثم قال :

دعا الدراهم عندي وتماليا إلى غداً .. !

ونودي الملك والسائل . قال الملك :

— أنا تاجر يا سيدي ، وهذا لقيني وأنا في طرف المدينة فرثيت له وأشفقت عليه ، ثم أعطيته ما يخفف من ألمه ويزيد في فرحه .. فلما انطلقت إلى ما أنا ماض من أجله ، لحق بي وطلب أن أوصله الساحة الكبرى . فأردفته . فلما كنا في الساحة الكبرى ، طلبت إليه أن يتركني فأبى ، وقال هذا حصاني جئت تنتزعه مني . فالتف حولنا الناس وساقونا إليك . هذه قصتي يا مولاي فاحكم بما تريد ! ...

قال السائل :

— يا للكذب يا مولاي ! إنه كذب وافترى ، فما أنا إلا صادق أمين ... كنت أجتاز المدينة ومعي الحصان فرأيته في بعض الطريق ... فطلب مني أن أوصله الساحة الكبرى فقد أنهكه السير الطويل . فلما أتيت به الساحة قال هذا حصاني ... فاحكم يا مولاي أيدك الله وأطال بقاءك !

وفكر القاضي وقدر ... ثم قال :

— سأعرف الكاذب من الصادق ... دعا الحصان لدي ، وارجعا إلى غداً

وتفرق الناس ، ومضى كل إلى سبيله ، وذهب الملك يفكر في هذا القاضي الذي سماه الناس « بالسعيد »

* * *

أقبل الليل ، فجلس الملك يفكر في أمر ذلك البائس المسكين ويتذكره ، فملأ صوته المضطرب سمعه وفؤاده ، وهو يتساءل عن جزائه وكيف يكون . فلما أضناه التفكير أسلم نفسه للكرى . فنام نوماً عميقاً ، رأى فيه من الأطياف مالا يحصر ، ومن الأشباح المرعبة مالا يحد ، وضحك النهار فاستيقظ الملك ... وأخذ يرتدي أثوابه ، ثم مضى إلى المدينة ليطوف في أسواقها فلما أجاز ساحة الحي وجد غريمه يتدحرج نحو دار القاضي

وكان الناس يأتون زرافات زرافات ، فقد أعجبوا بالقاضي فنفذت نفوسهم في شوق ملح لكل ما يقول. وجاء المتخاصمون فتقدم العالم والقروي . فنظر القاضي إليهما وقال :

— أيها العالم ! إنها زوجتك فخذها وامض بها إلى دارك ...

(١) حاري الأذنين أي أن أذنيه كأذني الحمار . ويقال أيضا فيل الأذنين . ذكر المعري في رسالة غفرانه ص ٤٧ ما يلي : « وكان ببغداد رجل كبير الرأس فيل الأذنين ، اسمه قاذوه ... الخ » وقد قسنا الأولى على الثانية

(٢) جيب القميص طوقه : أي صدره : وهذا المعنى هو خلاف ما هو شائع من معنى هذه الكلمة

أما أنت أيها القروى ، فجزاؤك خمسون جلدة تنالها فى الساحة الكبرى على ملأ من الناس ! ...

وانصرف العالم وزوجته، وأخذ القروى ليجلد

وجىء بالجزار وبائع الزيت ، فقال القاضى :

— أيها الجزار ! ها هى ذى دراهمك فخذها . أما أنت ... فجزاؤك خمسون جلدة تنالها فى الساحة الكبرى على ملأ من الناس ! ...

وأخذ الجزار دراهمه . ومضوا بالبدال ليجلدوه .

وتقدم الملك والسائل . فقال القاضى للملك المتنكر :

هل تعرف حصانك جيدا ؟

— نعم يا مولاى !

— وأنت أيها السائل ؟

— وأنا أيضا يا سيدى !

— اتبعانى إذن ...

وانطلق القاضى بهما إلى الاصطبل وقد امتلأ بالجياد . فقال للملك : دلنى على حصانك ... فدله الملك ، ثم أخرجه وأدخل السائل ... فدله عليه أيضا ، فلما خرج القاضى قال: خذ حصانك أيها التاجر فهو لك ، أما أنت فستجلد خمسين جلدة فى الساحة الكبرى

وهم القاضى بالانصراف ... فتبعه الملك وقال له:

— أريد يا مولاى أن أعلم كيف استطعت أن تعرف أن المرأة كانت للعالم ، وأن الدراهم كانت للجزار ... وأن الحصان كان لى فقد حار عقلى فى فهم ذلك ... !

قال القاضى :

— أما المرأة ، فقد أتيت بها إلى دارى ، وقلت لها ضعى فى هذه المحبرة مداداً . فأخذت الدواة فنظفتها ، ثم ملأتها مداداً . فعلمت أنها تعلم ذلك من قبل ، والدواة لا توجد إلا عند العالم . فحكمت أنها امرأة العالم وليست خليلة القروى . أما الدراهم فقد وضعتها فى إناء ملئ بالماء ، وقلت لنفسى ، إن كانت لبائع الزيت فلا بد أن تطفو على صفحة الماء قطرات من الزيت جاءت إليها من يديه . ولكن الماء بقى صافياً ، فعلمت أن الدراهم ليست لبائع الزيت وإنما هى للجزار

وصمت القاضى قليلا ، فلما طال صمته قال الملك :

— والحصان يا سيدى ؟

قال القاضى :

لقد قلبت الأمر بين يدى فلم أجد حيلة أنفع من أن تدلانى على الحصان ، فعرفته أنت كما عرفه السائل ، ولكنى رأيت الحصان أدار وجهه نحوك ، ورفع أذنيه عند ما دنوت منه . فلما جاء السائل أرخى أذنيه ورفع إحدى رجليه يريد رفسه ، فعلمت أن الحصان لك

فابتسم الملك ضاحكا ، ثم تقدم من القاضى فقال له :

أيها القاضى ! نعم العدل بك عيناً ، لست بتاجر ، ولكننى الملك !

ودهش القاضى وارتجف رهبة ثم انحنى وقال :

— عفوا يا مولاى ... أنا عبدك

— قم أيها القاضى وسل ...

— إن ثناءك على لمكافأة لى يا مولاى ،وانحنى ليقبل قدميه

— قم ... قم أيها القاضى السعيد ... فلقد صدقت بك ... وآمنت ... لقد صدقت وآمنت ... ومنذ الغد ستكون لى وزيراً !

ص م

مطبعة الرسالة